محمود قاسم

وقائع سنوات الصبا

رواية

الكتاب: وقائع سنوات الصبا (رواية)

الكاتب: محمود قاسم

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قاسم، محمود

وقائع سنوات الصبا (رواية)/ محمود قاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **8 – 526 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **15981 / 2017**

وقائع سنوات الصبا
(رواية)





السنة الأولى

تحققت لي اليوم ثلاثة نجاحات:

1830

غزاة الشمال.

الوسادة الخالية..

هرولت الأرقام وراء بعضها، كأنها في سباق سرمدي لا يمكن أن تخرج منه إلا كي تعود إليه مرة أخرى. ينطق مذيع الراديو أرقام الناجحين الواحد تلو الآخر. يقفز رقمان أو ثلاثة.. وأحيانًا سبعة.. عندما اقترب من الرقم 1800 اشتدت أوتارنا العصبية. واخترقت شرايين قلبي نبضات أعلى من صوت المذياع الخشبي الرابض فوق الرف المتهالك بجوار النافذة. لم يراع صوت المذيع الخشن، الخالي تمامًا من أي حياة، تلك النبضات القافزة من داخل جدران الغرفة. أم حسن تتلهف على سماع النبأ بنفس اللهفة التي أصابتني.. عندما هرولت لأحتضن حسين كان صوتي أعلى من الراديو عشرات المرات. الصوت الوحيد الذي علا على صراخي هو تلك الزغرودة الحادة التي انطلقت من حنجرة أمي كأنها ميكرفون يعلن لأبناء الحارة جميعًا أن ابن أم حسن نجح في الحصول على شهادة القبول.

عبر المذيع مسافات واسعة بين أرقامه الأليفة التي ينطق بها. خلت في المسافة الشاسعة التي تقع بين 1800 و 1830 أن الأرقام لم يعد لها وجود،

وأن المذيع يداعب قلوبنا الصغيرة الرابطة بين ضلوع خضراء. وأيضًا قلوب الآباء وربات البيوت الذين ينتظرون معرفة النتيجة. قفز أكثر من مرة فوق الأرقام، واستقر فجأة عند رقمي؛ فألغينا جميعًا من بعده كل ما نعرفه عن التسلسل العددي بين الــ 1830 وما بعدها..

عرف البيت لغة التهاني. أطفأت فتحية ظمأ البيت بأكواب الشربات الأحمر وحرصت ألَّا تملأها جميعًا حتى الأطراف.. تهادت إلى مسامعنا أخبار الناجحين والراسبين في حارة الفهد. حظي أحمد وإيهاب وسوسن وقسمت بقبول من المذيع للالتحاق بالصف الأول الإعدادي. نسي الرجل أرقام رضا وهاني حسام ابن عم رضا. قالوا إن الولد شديد الغباء فقد رسب للمرة الثانية. عندما وقفت بجوار باب المنزل المجاور أتحدث زهوًا عن نجاحي ضربتني فتحية على خدي لعبارة قلتها فخرًا. اعتذرت أختي بلباقة وهي تجرني وتصعد بي إلى شقتي الصغيرة وتقول لأخيها حسن:

– هل تتصور أن يقول أمام رضا أنه لو لم ينجح لانتحر؟

مدت أم حسن يدها إلى صدرها وأخرجت لفة النقود المليئة بالقروش.. وفكت عقدها اللامتناهية وهي لا تتابع مقلتيَّ اللاعبتين في محجريهما. أعرف أنها ستمنحني القرش الذي وعدتني به منذ أيام. أمسكته بين أناملها المهتزة لكثرة ترددها في أن تمن علي به. قطعت يدي الخاطفة ترددها فالتقطت القطعة المعدنية، وأنا أقول:

– لن يكفي أبدًا يا أم حسن.

سألني ابنها الأكبر عن الفيلم الذي سأراه عصر اليوم في سينما النيل. قلت بفخر:

– ليس فيلمًا واحدًا، بل فيلمين تعرضهما السينما خصيصًا لأجل الناجحين مثلنا.

أخي لا يعرف شيئًا عن "غزاة الشمال"، ولا عن "الوسادة الخالية" لكنه يردد بين وقت وآخر أن إسماعيل يس الذي يضحك الناس في السينما فشل يومًا في إضحاك الركاب الذين التقاهم أخي معه في قطار دمنهور، قال مرة "كله تمثيل في تمثيل". قلت وأنا أتحسس القرش المستدير في جيبي المثقوب دائمًا:

– كله إلا.. "غزاة الشمال".. و"الوسادة الخالية"..

لا يمكن لحسن، ولا لأحد من كرموز أن يتصور مجيء "غزاة الشمال" إلى شارع النيل المليء بالمقاهي على الجانبين، حاملين معهم سيوفهم الضخمة وبلطاهم الحادة السنون، وجذوع الأشجار السميكة لتحطيم بوابات الحصون. وللصعود إلى الجدران العالية، يتقدمهم رجل حاد القسمات، أكل الصقر عينه اليسرى يومًا.. يسمونه في شارعنا "كيرك دوجلاس". طعنه أخوه، الذي لا يعرفه، بسيف طويل كسر نصله أثناء مبارزته إياه.. في العام الماضي وقف أحمد عبد العظيم يحكي لنا حكاية الفيلم بتفاصيله الدقيقة بعد أن شاهده في سينما بارك الواقعة خلف ميدان محطة الرمل. وهو يقسم برأس أمه أن هذه الأفلام العالمية لا يمكن أن تطأ كرموز

يومًا. وأن كيرك دوجلاس هدد على صفحات الجرائد أنه سوف يمنع أفلامه من الدخول إلى مصر لو عرف أن فيلمًا له عرض في سينما تبيع التذاكر بتسعة مليمات. خاصة السينما المليئة بالأطفال الصغار، وبعض الرجال الباحثين عن أطفال صغار يلوطون بهم في الظلمة، عندما عرف أحمد عبد العظيم – في الأسبوع الماضي – أن كيرك دوجلاس سوف يغزو كرموز بفيلمه "غزاة الشمال" أكد أنه سمع أن مدير السينما أرسل خطابًا إلى شركات الإنتاج الأمريكية يطلب فيه أن تتوسط لدى النجم العظيم كيرك دوجلاس من أجل الموافقة على دخول فيلمه كرموز، ولا سيما أنه منذ عامين تم عرض فيلم آخر له في نفس السينما كان يشاركه البطولة فيه زميله الشجاع بيرت لانكستر. قال أحمد عبد العظيم: الرد لم يصل إلى مدير السينما ففكر في إرسال خطاب إلى توني كيرتس الذي قام ببطولة الفيلم أمامه وقتله شر قتلة، وأن النجم الوسيم راسله، وأخبره أنه استطاع الحصول على الموافقة من العم دوجلاس، على عرض الفيلم في سينما النيل. لكنه سمع من زميله الذي يعمل معه الآن في فيلم جديد من إنتاجه سيكسر الدنيا تحت اسم "سبارتاكوس" أنه لن يوافق أبدًا أبدًا، وعلى رأس أمه أن يعرض فيلمه الجديد في مثل هذا الدور الذي تباع فيها التذاكر بتسع مليمات.

عندما سألني أخي عن الفيلم الذي سوف أشاهده بالقرش الذي منحتني أمي إياه بدا مندهشًا وهو يسمعني أردد حكايات أحمد عبد العظيم. قال:

– هل صدقته؟

أجبت:

- طبعًا. إنه يقرأ الجرائد والمجلات ويراسل نجوم السينما ويعرف أخبارهم وتصله منهم صور موقع عليها بأسمائهم.

قال:

– إنه يبالغ.

– أبدًا.. ربما يحدث هذا فيما يخص مغامراته مع بنات المدارس.. لكنه أراني صورة موقعة من شكري سرحان.

طلب مني آخر أن أذهب إلى محل أحمد إبراهيم المجاور لسينما الجمهورية بشارع راغب من أجل شراء مصباح جديد من أجل الغرفة الكبيرة. ربت على كتفي، وقال:

– لا تخف.. لن تتأخر عن موعد السينما.

سحبني بيده وأخذ يحدثني ونحن نسير في شارع 12 عن شقاوة أحمد عبد العظيم التي يعرفها الجميع، وأن الجيران لا يزالون يشتكون من شقاوته حتى الآن رغم أنه في الإعدادية فقد حث شلته أول أمس على وضع كتلة من الخراء في طرقة باب المنزل المجاور. وعندما عادت أم راوية بعد الثامنة فوجئت بيدها وقد امتلأت بشيء لين كريه الرائحة. وقفت تصرخ بهلع ودون توقف بينما وقفت شلة أحمد عبد العظيم في مكان غير بعيد وهي

تنفجر ضاحكة لفعلتها الشنعاء. كنت أعرف تفاصيل الخطة قبل حدوثها بيومين. لم أود الاشتراك فيها. لم أشأ أن أخبر "حسن" أن المقصود بهذا هو الحاج كامل الذي كثيرًا ما ضايقنا ونحن نلعب الكرة بجوار بيته. وكلما عاد من عمله أخذ ينظر إلينا بعينيه المرعبتين اللتين تجبران أيًا منا أن ينكمش في مكانه وينزوي بجوار الرصيف أو يلتصق بالميزاب الطويل الذي يصب من سطح المنزل إلى الرصيف مباشرة. يقف يرقب إيماءات بعض المتمردين الذين لم ينكمشوا بعد. فإذا شعر أن نظراته لا تكفي لقمع التمرد فإن فمه الواسع يقفز بصوت أجش عال كفيل أن يسمع كل الأمهات في البيوت كأنه يوجه إليهن رسائل شفاهية أن "ربوا أولادكم" ثم يعدل من طربوشه. ويدق باب منزله بالمطرقة فيفتح الباب فورًا من خلال حبل يشده أحد أقاربه في الدور الثالث.

أعلن أحمد عبد العظيم أنه تمكن أخيرًا من معرفة سر المطرقة. وأن الوقت حان كي يسخر من الرجل، حتى ولو على رقبته. فكر في أول الأمر أن يأتي له بأولاد من إحدى الحارات الخلفية، ويخطفوا منه طربوشه. لكن الرجل طويل ولا يمكن لأي شخص أن يصل إليه إلا إذا أحضر معه سلمًا. اقترح أيضًا، أن يتم قذف الرجل بكرات من القار الأسود تترك أثرها فوق جلبابه الناصع البياض وهو عائد ليلًا، على أن يحدث ذلك من عدة اتجاهات فلا يتم اكتشاف الفاعل الحقيقي، على ألا يمس أحد بقاذفاته البالطو البني الذي يرتديه عادة فوق الجلباب. الهدف هنا هو الجلباب الأبيض.

بدأ يخطط لتنفيذ ما فى نفسه. اختار القاذفين المهرة، ودربهم جيدًا، وأتى بالقار من مخلفات كالوظة الذي يبيع الجاز الأسود للأفراد. لكنه عندما شاهد زعبلة ابن أم إبراهيم يتبرز – وهو الذي لم يتعد الرابعة – وجبة دسمة بجوار كومة الزبالة التي تتصدر الحارة. صاح مهللًا:

– أليست هذه أفضل؟

ونفذ خطته التي اشترك فيها الدقة ونبيل. أما فتحي وأنا فقد آثرنا أن ننام باكرًا، ليس لأننا من أنصار القاذفات السوداء، لكن لإعجاب خفي بأناقة الرجل، وبالحذاء الإزاز الذي يرتديه ابنه عز المقيم معه في الدور نفسه.

عرفت في اليوم التالي أن أم راوية سبقت حماها الحاج كامل إلى الباب كي تدق المطرقة، بينما تأخر الرجل بعض الوقت عند محطة الأتوبيس. وعلى الفور عرف الجميع شخصية المتمرد الأول في حارة الفهد الذي نام ليلتها في فرن عم علي خوفًا من بطش أبيه..

عندما خرجنا من حانوت أحمد إبراهيم سألني حسن:

– هل رأيت الخوف الذي يرتسم على وجه الرجل؟

بدا صاحب المحل، ونحن نشتري اللمبة، متجهمًا حزينًا ينطق بكلمات ممزوجة بالقلق، ويردد بين وقت وآخر: "الدور القادم علينا. لن نسلم أبدًا منه." لم أهتم إلا بمتابعة الثريات الكثيرة متعددة الأشكال المعلقة في السقف وأنا أتصور إحداها وقد علقت في غرفتنا الكبيرة فتحول ليلها

إلى نهار أبيض مثلما يحدث في الحانوت. قاطع حسن رغبتي في سؤاله عن إمكانية شراء نجفة بدلًا من الساعة التي وعدني بها عند النجاح، وقال مرة أخرى:

– هل تعرف لماذا هو خائف؟

أجبت: أن يأخذوا المحل منه.. ويعطوه للشعب.

لا أعرف لماذا ربت على ظهري. قال:

– التأميم هو الشبح الذي يهدد الناس في بيوتها.

سألته: أليس هذا أفضل؟

ضحك وقال: يقولون إنها اشتراكية.. الصحف هذه الأيام مليئة بكلمات جديدة لا أفهمها.. اشتراكية، بروليتاريا، رجعية.. ومطلوب منا أن نعلمها للتلاميذ.

قلت: أنت.. كبير.. وتقرأ صحفًا..

– ليس لما يحدث علاقة بما نقرأه في الصحف..

قاطعته: نريد نجفة.. بكم الواحدة؟.

رد: الأمر يختلف.. بين واحدة وأخرى. أعتقد أن أرخصها تساوي خمسة جنيهات.

وجدت نفسي أعد ثروة أحمد إبراهيم بين عدد الثريات التي أحصيتها عندما دخل أخي في حوار على الرجل المليء بالمرارة.

أعلن أحمد عبد العظيم أنه سوف يشاركنا فرحة النجاح ويشاهد "غزاة الشمال" للمرة الثالثة. بل أعلن أيضًا أنه شاهد "الوسادة الخالية" في سينما ريتس منذ عامين. وقف يتخايل أمامنا وهو يردد أن الزمن أجبره أن يعود من جديد لدخول "سينما النيل" التي تبيع التذكرة بتسع مليمات. ثم عاد ليقول:

– هذا من أجل أصدقائي وأقاربي الذين نجحوا في القبول.

عندما اتجهت شلة الستة إلى دار السينما لم يكن فيها من الناجحين سوى فتحي وأنا. أما نبيل والدقة وصلاح وأحمد فهم يسبقوننا في سنوات الدراسة. جلست أمام الرصيف المقابل للسينما أتطلع إلى جدران السينما وقد غطاها أفيشان كبيران وقف كيرك دوجلاس وتوني كيرتس – في أحدهما – وقد أمسك كل منهما بسيف طويل. ومركب كبير لغزاة الشمال تطفو فوق البحر تحت عبارة "أقوى أفلام الموسم"، وعلى الأفيش الثاني انحنى عبد الحليم حافظ يقبل فتاة جميلة فوق خدها وأقد أغلق كل منهما عينيه – لا أعرف لماذا – بينما تمددت الفتاة فوق وسادة خالية. سمعت من نبيل أن لبنى عبد العزيز، كانت تعمل مذيعة في البرنامج الأوربي بالإذاعة، وكانت تقدم برامج الأطفال قبل أن تعمل في السينما.

لا أحد يصدق أن سينما النيل يمكنها أن تعرض في حفل واحد كلا من هذين الفيلمين اللذين تقت لرؤيتهما منذ أمد طويل، وأن تجمع مرة واحدة كل من كيرك دوجلاس وتوني كيرتس وعبد الحليم حافظ، ولبنى عبد العزيز، وأحمد رمزي، وعمر الحريري. امتلأ الرصيف بالمئات من الكروموزيين الذين جاءوا من أجل الحصول على تذكرة. تكدست الأجسام الصغيرة أمام كوة النافذة الحديدية يقفز أمهرهم فوق الحشد الهائل ويزحف بمساعدة بعض زملائه الذين يعرفونه، ويمكنه أن يمد أصابعه إلى الكوة الصغيرة مزاحمًا عشرات الأيدي التي استطاعت أن تنفذ داخلها من أجل الحصول على التذاكر. رأيت الدقة يزحف جانبًا وهو يهتف "يا قوي". وينجح في أن يقترب من النافذة الحديدية. بينما وقف أحد عبد العظيم أمام نرد "التاج والهلب" يجرب ملاليمه كالعادة، يؤمن أنه كي تكسب في هذه اللعبة يجب أن تضع مليمًا فوق كل من الصور الست التي على النرد. صلاح إلى جواره يشجعه بلسانه ولا يقوى أن يخرج مليمًا واحدًا لوضعه فوق النرد. إنه دائمًا العقل المدبر لكل العمليات التي ينفذها عبد العظيم. وعندما تصل الأمور إلى نقاط مسدودة يرفع يديه معلنًا أنه كان دائمًا ضد هذه الخطة وأنه رآها فاشلة في أولها.

يهمس في أذن عبد العظيم أن يضع بضع مليمات فوق "البساط" لأنه كسب أربع مرات في الدورات السابقة. لكن "الكلب" يكسب هذه المرة فيحمر وجه الخاسر وهو يلعن الحظ مليون لعنة. علت الصياحات معلنة قدوم عم سعيد لفتح السياج الحديدي للسينما. وقف فتحي وقد

علاه القلق، إن السينما سوف تدخل زبائنها ولم يتمكن أحد منا من الحصول على تذكرة واحدة. صاح نبيل وهو يشير إلى ابن خالته:

– ما دام هو معنا.. فلا تقلق.

عندما جاء الدقة بدا بارد الأعصاب؛ هو يخفي التذاكر التي اشتراها في جيبه. امتدت الأيادي لخطف تذاكرها. هتف نبيل:

– ألم أقل لكم؟

قال الدقة: لا يبيعون أكثر من ثلاث تذاكر..

امتقعت وجوه بعضنا. سألت:

– وما العمل؟

رد: على أحدنا أن يجرب..

نادى أحدنا لاعب النرد. فلوَّح عبد العظيم أن دعوه في حاله.

رد نبيل:

– لعله خسر.. كالعادة!

اقتربنا من النرد. وسأل أحدنا:

– ما الأخبار؟

ردد صلاح: كسبنا عشرين قرشًا.. وها نحن نراهن على المليم الأخير.

هتف بسذاجة: معقول؟

تحجرت أعيننا فوق المائدة تراقب الزهرين يتحركان بعنف بعد أن ألقاهما الرجل من كوبه الزجاجي وشعرت أن مآقينا تتدحرج معهما، وقلوبنا تدق وكأنها تجبر الزهر أن يقف أمام التاج.. رايت أحمد عبد العظيم يتمدد فجأة إلى أعلى ويرفع صوته قائلًا:

– يا للحظ!

وقفنا بجوار الرصيف نتدبر الأمر. راح كل منا يمد يده في جيوبه فلا يجد فيها شيئًا. لا يمكن أن ندبر تسعة مليمات من أجل تذكرة أحمد عبد العظيم. ولا يمكن أن ندخل دونه. قال:

– على الناجحين أن يدخلوا أولًا.. سوف أتصرف..

انحشرت وفتحي وسط الأجساد الصغيرة، تدفعنا أجسادهم كي ندخل. يخطف الرجل التذاكر ويمزقها ويدفع بأصحابها للدخول كي يفسح أماكن لآخرين. أسرعنا إلى الدكك نحجز الأماكن لأنفسنا. لم تكن القاعة قد امتلأت رغم الزحام الشديد. هرولنا إلى الدكة التي اعتدنا الجلوس فوقها. لكنها كانت محجوزة. سمعت صوت الدقة ينادي.. سألته:

– لماذا دخلت؟

لم يرد على سؤالي. جرى ناحية إحدى الدكك وأشار لنا أن نتبعه.. قال في عجالة:

– احجزوا أربعة أماكن..

حاول صبي أن يجلس قبالتنا. دفعه الدقة جانبًا وأفسح لنا الأماكن. حاول الصبي أن يهاجم الدقة وهو يسبه. لم يعره اهتمامًا وجلس فوق الدكة التي جلسنا عليها ونحن نفسح أماكن لثلاثة أشخاص سيأتون بعد قليل. لم ينتبه الدقة إلى الصبي الذي حاول مهاجمته مرة أخرى. لكمه على ظهره واختفى بين الجموع المتزاحمة التي تهرول كي تحجز لأنفسها أماكن. سألت:

– لماذا جئت؟

ردد: سوف أكسر له ظهره.

ثم قال: لا تتركا المكان.. سوف آتي به..

وقف رجل طويل بجوار الدكة يأمرنا أن نفسح أماكن من أجل آخرين. وقف الدقة وهمس له ببضع كلمات. رأيت الرجل يبتسم ثم يتجه إلى دكة أخرى يبحث عن أماكن للصبية الذين يقفون معه. سألته مرة أخرى:

– هل سيأتون؟

قبل أن يرد انطفأت أضواء السينما، فارتفع الصراخ والصفير وامتزجت النداءات. ركزت عيني على الشاشة لأعرف وزن الفيلم. بينما جاءنا صوت عبد العظيم ينادي وسط الظلام. صاح الدقة بصوته الأجش العالي: أيوه.. تعال..

جاءنا صوته يتساءل عن أماكننا وسط العتمة بينما لم يكف الصغير بعد. وعلت أصوات تطالب بسيادة الهدوء. ركزت عيني على الشاشة والتصقت بها فأحسست أنني وحدي في القاعة، أغوص بعقلي وجسدي داخل ما يدور على الشاشة ناسيًا حكاية أحمد عبد العظيم مع النقود التي سرقها من صاحب النرد بعد أن أوقع له الزهر على الأرض فانحنى يلتقطه ولم يلحظ أصابعه التي التقطت ثلاثة قروش من فوق زجاج النرد. سمعته وأنا أقترب من غزاة الشمال وأحسست كأنني واحد منهم يردد أنه سوف يشتري لنا حلوى أثناء الاستراحة.

لم أرتد أبدًا تلك الأزياء الغريبة، ولم أتمنى أن تكون لي لحية كثيفة مثل تلك التي يطلقها هؤلاء الرجال الذين يبدون غلاظ القلوب. جاء الرجل ذو العينين الناريتين كي يغتصب ملكة إنجليزية ويعود إلى بلاده. إنه زعيم غزاة الشمال. بعد عشرات السنين يقف رجل فوق التل. يبدو جميلًا مليئًا بالشباب والحيوية. يتطلع إلى نسره المحلق فوق أعنان السماء وهو يمزق السحب بجناحيه القويين. يتخايل كصاحبه ثم يحط على يده، وينزل ليلاقي أباه العائد من إحدى غزواته، يبدو البحر جميلًا. في المساء تدور مباراة لاصطياد ضفائر امرأة قيل إنها خائنة. قذف دوجلاس بلطته في الهواء

واستقرت فوق ضفائر المرأة فمزقها. هناك رجل آخر يملك نسرًا قويًا يطلقه على دوجلاس فيثقب له إحدى عينيه. يقذفون بتوني كيرتس في البحر كي تنهشه العواصف. تصرخ إحدى الساحرات طالبة من الإله أوندوين أن ينقذ هذا الرجل، فهو ابن ملك. عندما يلتقي بالأميرة الإنجليزية التي اختطفها الفايكنج يساعدها في الهروب داخل بحر الضباب. وفي طريقه يلتقط أباه زعيم الفايكنج الذي لا يعرفه، ويتجه الجميع إلى إنجلترا. هناك يتم إلقاء الزعيم في بئر الذئاب. وتعرف الأميرة حكاية حبيبها الذي ألقى بأبيه إلى الذئاب. يجيء جنود الفايكنج ويحطمون الحصون الإنجليزية. وتدور معركة دامية بين الأخوين اللذين لا يعرفان حقيقتهما. تتم المعركة على شرف امرأة يحبها كل منهما. وعلى شرف نصر زائف. إنهما أقرب إلى سليم الخنش وإخوته: لؤلؤ وتحتح عندما يعلن عن بدء مواجهة فيما بين أى منهم، فعلى أبواب شارع التميمي، وكل الحارات المتفرعة منه أن تغلق. مسموح للناس أن يطلوا من النوافذ أو أسطح المنازل لمشاهدة وقائع أعتى المعارك التي تدور في كرموز. إنها أكثر شراسة من كل ما يفعله غزاة الشمال. ينطلق الصراخ من حناجر النساء في النوافذ. تبرز أحدث أنواع السكاكين. يصرخ لؤلؤ كما طرزان ويكشف عن صدره ويتعمد أن يرفع صوته ليشق عنان كل الحارات المجاورة لأنه يعرف أن المنتصر هو سليم. فهو الأكبر سنًا، والأقوى جسدًا، والأجش صوتًا. وله صدر أعرض من صدر ستيف ريفز. هرقل الذي نراه في سينما الدورادو. ولأنه قبل كل شيء أخوه الذي رباه يومًا. يخطو بثبات من حانوته حاملًا

هراوة ضخمة. ينهال بها فوق الكشك الذي يقيم فيه بجوار أرجوحته التي يرتزق منها.

لا تنطفيء أوار المعركة إلا إذا جاءت الأم تزق بصراخها الحاد كل أصوات النساء "يا بني.. يا ضنايا". لا يمكن أن تتكهن من تقصد. في بعض الأحيان نقف إلى جوار لؤلؤ ضد أخيه. لكنها في أغلب الأحيان تنحاز لسليم. تردد أنه حنون عليها ويعطيها النقود لشراء عيدان القصب التي تبيعها كي تدفع إيجار غرفتها. يردد بعضهم أن الأم قد تكون السبب في إشعال المعارك بين أبنائها. قليلًا ما يتدخل بحبح في المعركة. لكنه حين وقف بين أخويه ذات يوم دخلت حواري كرموز كافة شياطين الكرة الأرضية. عندما عرض فيلم "فتوات الحسينية" منذ عدة أشهر قيل إن سليم الحنش شاهده أكثر من مرة وسمعه بعضهم يردد أنه سوف ينصب نفسه فتوة لحارة التميمي. أكد بعضهم الآخر أن لؤلؤ حجز أماكن في "البلكون" مع بعض أتباعه وأن صاحب السينما أمر صلاح عامل العرض ألا يقطع أي مشهد. قيل إن لؤلؤ لا يخشى الشرطة ولا يعمل لهم أي حساب، وأن المأمور عندما يسمع خبر الشجار يحس بالسعادة ويردد:

- دعوهما يصفيان بعضهما. فهذا أفضل للعدالة.

سب سليم أخاه يومًا وعيَّره أنه خادم حقير لدى الشرطة ويعمل مرشدًا لهم. وأنهم أقاموا له الكشك، ودفعوا له ثمن الأرجوحة. غرس لؤلؤ يومًا سكينًا في كتف سليم بينما وقف كيرك دوجلاس يشهر سيفه على أخيه وهو يتساءل: "لماذا يتردد"، وقف الجميع أمام السفينة المحترقة

يكرمون الفايكنج الذي مات حاملًا سيفه. العرض القادم، ترتفع أصوات في الصالة، وإعلان عن فيلم "الزوج أول من يعلم".. وفيلم إفرنجي بطولة إيدي مورفي يقوم فيه بدور شريف يطارد الأشرار في البراري.

أضيئت الأنوار.. القاعة مزدحمة بالأطفال وبعض الرجال. الدكك محشورة بأجسادنا. قام عبد العظيم من مكانه وقال متوعدًا:

– لا تدعوا أحدًا يجلس هنا.

باعة الكعك ينتشرون بين الدكك. وقف الكثيرون في الطرقات وبجوار الحوائط التي اكتست بعشرات الأفيشات عن أفلام ستعرض قريبًا. بعضها عربي وبعضها الآخر أفرنجي: "تحت سماء المدينة"، "حياة وأمل"، "زعيم الآباش"، "الكنز المفقود"، "أنا هارب"، "سمارة"، يتطلع فتحي الجالس بجواري إلى الزحام المألوف الذي اعتدناه في سينما النيل. خاصة عندما تعرض أفلامًا جميلة. مثلما حدث في العيد الصغير عندما عرض فيلم "أبو حديد" لأول مرة. وجاء أبناء كرموز جميعهم لمشاهدة حسن أبو حديد يحطم مقاعد المقهى، ويضرب خصومه بقوة، ويسعى للانتقام من قتلة أبيه. رأيت أحمد عبد العظيم وصلاح يقفان مع عاشور. تأملتهم بفضول شديد، يقف عاشور منحنيًا بقامته الطويلة داخل قفطانه "السمني" محاولًا الاستناد إلى الحائط، يتحدث مع صلاح وأحمد باهتمام شديد. لا أعرف ماذا يقولون؟ لعل عبد العظيم يسخر منه، كعادته، بوقاحة شديدة. ويخبره أنه يمكنه الوقوف خلفه بعد أن تنطفيء الأنوار، أو يدخل معه دورة المياه أثناء عرض "الوسادة الخالية" ثم يأتى إلينا ليرينا القروش العشرة التي أخذها منه.

يمكنه أن يصرفها علينا أو يخرج بها إلى رجل التاج والهلب ليخسرها في دقائق ويعود للبحث عن عاشور مرة أخرى. أكد أحمد أكثر من مرة أنه ذهب إلى غرفة الرجل الصغيرة في حارة الحارس، أنها مليئة بروائح الموتى والأكفان وفواكه متنوعة يضعها في سلة مستديرة أخذها رحمة ونور من النساء اللاتي يترددن على المقابر صباح كل خميس. ردد أحمد أن عاشور يحب أعضاء الرجال وأن يتلذذ بغسل أجساد الموتى من أجل هذه الهواية الغريبة وأنه يميل إلى الصغار أكثر من الكبار. ضربه رجل يومًا عندما عرض عليه أن يدخل معه إلى إحدى الجبانات الواسعة. يردد عبد العظيم أن عاشور الملوط أكثر شجاعة من كل رجال كرموز، بمن فيهم سليم ولؤلؤ الحنش، فهو يبات وحده في المقابر المليئة بالأشباح والعفاريت، بل إنه صديق للعفاريت التي أثارت الخوف في قلوبنا ذات ليلة ونحن نستمع إلى حكايات عبد العظيم ونبيل عن عفاريت "العمود"، عندما رأيت عاشور يقف أمام نعش جدتي لم أصدق أن هذا الرجل الصامت مخنث. أحناه طوله بعض الشيء فلا يمكن أن تراه مفرود القامة. ساعدت خشبة الموتى التي يسير بها بين الحارات على زيادة تقويضه. نعرف أن وراءه دائمًا حالة وفاة. وقفت أتابعه باهتمام. اقترب مني ثم تمتم ببعض الكلمات. عندما أخبرت عبد العظيم هتف:

– سوف يصطادك.

جفلت. شعرت بمن يدفعني إلى أن أنزاح قليلًا نحو الدقة كي يتمكن بعضهم من الجلوس. صاح الدقة:

– محجوز يا أسطى.

إنه نفس الرجل الذي حاول أن يُجلس صبيًا قبل عرض الفيلم الأول. اقترب "الدقة" من الرجل وهمس له ببعض الكلمات، أشار إلى عاشور والفتيين الواقفين معه. مص الرجل شفته وقال:

– عاشور.. هل وصلتم لعاشور؟

انطفأت الأنوار مرة أخرى. ستبدأ حكاية "الوسادة الخالية" إنها قصة تختلف عن موضوعات عاشور والأشباح. حكاية عبد الحليم حافظ تملأ صوره جدران غرفتي الضيقة. يقوم بدور تلميذ يدعى "صلاح" أحب بنتًا جميلة من مصر الجديدة. تعرَّف إليها في أحد الأعياد مع زميليه الجائعين. بدا اللقاء شاعريًا. التقاها مرة أخرى. وصعد السلم ليغني أول مرة تحب يا قلبي. احتضن أمه. رأته سميحة من نافذتها فحاولت أن تصفر له. عندما رأتها أمها بدت متلعثمة. إنه الحب الأول. بركان لا ينطفيء، يندفع نحوها بحرارة. لكنها تبدو حريصة وعاقلة. يغني لها أنه مشغول بحبها. وفي نفس المكان حاول أن يهاجمها عندما أخبرته أن طبيبًا سوف يخطبها. هرولت جارية وهي تبكي. يحاول مصالحتها. تتم خطبتها، يراها أكثر من مرة مع الرجل الذي اختارها. بدت كأنها نسيت حكايته تمامًا. يغني من أجلها "تخونوه". ويتعرف إلى إحدى الراقصات. ويقرر أن ينجح في دراسته. يقولون إن هذا هو الحب الأول. بفشله ونجاحه. لا أعرف لماذا يرددون أن صباح هي حبي الأول. جاءت تسبني بعد أن ضربت أخاها الصغير وحاولت أن تشدني من ملابسي. دفعتها بقوة فلم تتخلص من عنقي وهي

تلعن أمي وأبي. جذبوها من فوقي وهم يطيبون خاطرها. حاولت أن أهاجمها فمنعني شاب كان يمر في الحارة وهو يقول:

- هل تضرب فتاة؟

اصطحبها إلى منزلها. جاءت أمها بعد قليل إلى أمي تشكوني وتحاول أن تعاركها. عندما كشفت لها أمي عن الخدوش التي أحدثتها أظافر ابنتها في كتفي تمتمت أم صباح بحنان وتحسست كتفي وطيبت خاطري، وذهبت مع ابنتها التي يبدو أنها رثت لحالي، أو لعلها شفت غليلها. كلما رأيتها تسير في الحارة تساءلت كيف أمكن لهذه الجملة أن تغلبني وتخدش كتفي؟ تنظر إليّ بعينين لا أفهم ما بهما. قال فتحي:

- إنها تهتم بك.

- ولماذا: لقد تعاركنا؟

- ألا تعرف أنه لا محبة إلا بعد عداء.

أجد نفسي كلما مرت أمام دارنا أنظر إليها دون أن تتكلم. ولا أعرف لماذا ظل صلاح حزينًا من أجل حبيبته التي ضاعت منه. يغني لها "في يوم من الأيام" ويراها فوق وسادته الخالية ويحتضنها حتى بعد أن أصبح محاسبًا ناجحًا. لم ينس حبيبته الأولى، حتى بعد أن تزوج من فتاة جميلة ورقيقة. لا يمكن لي أن أتزوَّج من صباح قبل سنوات طويلة. اللهم إلا إذا وافقت أمي على ذلك حتى نكبر. أصاب الزوجة ألم حاد فذهب بها صلاح إلى المستشفى وكان الطبيب هو زوج سميحة. وجدها قريبة منه مرة أخرى.

وابتعد عن زوجته. وحاول احتضان الوسادة الخالية، لكنه يكتشف أن الحب الأول وهمي.

فتحوا أبواب السينما الكبيرة قبل أن ينتهي الفيلم بدقائق. تسربت أضواء الشارع إلى القاعة. وقام الجميع يشاهدون النهاية وهم واقفون. بينما تسرب بعضهم من الصالة قبل الزحام عندما أضيئت الأنوار.. لم أكن أعرف هل شاهد عبد العظيم الفيلم معنا أم ذهب مع عاشور. لكن بعدما خرجنا إلى شارع النيل رأينا الدقة وأحمد عبد العظيم وصلاح يقفون أمام نرد التاج والهلب، وعينا كل منهما تحدِّقان باهتمام شديد في الزهر المقذوف من الكوب الزجاجي.

السنة الثانية

الصف الأول الإعدادي.. لم يرسب أحد.

هذا يعني أننا نجحنا جميعًا. من أولى أول وحتى أولى خامس. فتحي نجح في أولى أول في الفصل الإنجليزي، وفصلنا أيضًا نجح بأكمله. أولى رابع. الفصل الفرنسي. إبراهيم خليل، وحسني عويس، وحسن صبيح، ومحمد رجب، ومحمد نور الدين، وعلي شعراوي..

انتصار محتمل. قيل إن الرسوب في صفوف النقل نادر الحدوث. لكننا تعاملنا بجدية مع كل المواد عدا "الفرنساوي" لا أتصور أبدًا كيف نجحت في الفرنساوي ولا حسن صبيح. لعلهم رأفوا بحالنا، فأنجحونا أو ربما هي أوامر حضرة الناظر. فالمسيو "إسماعيل خالد" لا يمكنه أبدًا أن يكون رءوفًا إلى هذا الحد. حسين دخل علينا أول مرة روعنا بحقيبته الجليد فوقفنا لهما احترامًا. ابتسم وهز رأسه ونطق تحية الصباح. وجدت نفسي تلقائيًا أردد: "جود مورننج سير" أشار لنا أن نجلس. فجلست منتشيًا، قال كلامًا كثيرًا لم أفهم منه شيئًا إلا عندما قال:

– تعرفون أنكم ستدرسون الفرنسية؟

وكأن أمي سكبت عليّ زبالتها التي اعتادت إلقاءها من الدور العلوي، وكأن أحمد عبد العظيم حشا فمي بنصف كيلو شطة دفعة واحدة.

سعلت بطريقة أثارت انتباه من حولي وأنا أحاول منع نفسي من البكاء. لم تنهمر دموعي إلا حين دخل الأستاذ محمد إبراهيم ليدرس لنا اللغة العربية، وأخذ يختبر معلوماتنا فوجدت نفسي أرفع إصبعي لأرد على سؤال طرحه علينا. عندما قمت هربت مني الكلمات إلى طرقات مظلمة ألقينا فيها البمب ليلة أمس لإثارة الذعر في قلوب الأطفال. لم يقو لساني على الكلام. انفجرت مجهشًا بصوت عال. اقترب مني الرجل وربت على كتفي، وسألني:

– هل ضايقك أحد؟

أشرت إلى السبورة التي لا يزال فوقها بعض الكلمات الفرنسية التي كتبها المسيو وقلت:

– إنهم يعطوننا فرنساوي.

أسندت رأسي على بطن الأستاذ الذي راح يمسح شعري قائلًا:

– لا يهم أن تأخذ فرنساوي أو إنجليزي. المهم أن تكون مجتهدًا فيما تدرس.

انسحبت إلى مقعدي وأنا أمسح دموعي.. ولم أجد إجابات للدروس الرياضية أو المواد الاجتماعية. لم تحتمل أمي بكائي عندما عدت إليها. أخبرتها أن المدرسة التي التحقت بها تقسم التلاميذ إلى قسمين: الإنجليزي والفرنساوي. وأن وضعي في فصل اللغة الفرنسية يعني أنني تلميذ خائب، وأن مستقبل التلاميذ الذين يدرسون الإنجليزي أفضل. تحسرت

أمي على ابنها حسن الذي تم نقله إلى أسيوط وتركها في وقت هي في أشد الحاجة إليه. التحفت بملاءها السوداء وراحت إلى بيت زوج أختها الذي دوَّن بياناتي في ورقة صغيرة ووعدها أن ينقلني إلى مدرسة كوم الشقافة.

عندما دخل المسيو إسماعيل خالد في اليوم التالي كان لدىّ الإحساس أنني لن أراه ثانية. أخذ يستعرض – أمامنا – من اللغة الفرنسية التي تختلف تمامًا عن تلك الكلمات التي تعلمتها أثناء الأجازة.. ذامان ذاوومن. سكول. بوي. جيرل.

أثناء الحصة طرق الباب. دخل عم إبراهيم وخلفه صبي سلَّم للمسيو ورقة صغيرة. تخيَّلت أنها أمر نقلي إلى مدرسة كوم الشقافة. لكن المسيو أشار للصبي أن يجلس إلى جواري في المقعد الخالي. انتفض قلبي، فأمر النقل لم يصل بعد. وها هو زميل جديد يأتي في الفصل الملعون، لكن زوج خالتي معروف في المديرية وسيعمل على نقلي لا محالة، عندما أخبرت زميلي أنه سيدرس اللغة الفرنسية رد بلا مبالاة:

– ماذا يهم..؟

نجح حسن صبيح أيضًا في الفرنسية. لم يكن أحسن حالًا مني فيها. التهبت أصابعه طوال العام من ضربات العصا الغليظة التي يخرجها المسيو من حقيبته المنفوشة عقب دخوله الفصل ثم إلقائه "بونجور" التي كرهناها كثيرًا. أرقب فتحي وهو يحمل كتاب الإنجليزي الصغير. كلما تصفحته شعرت أن برأسي لهيبًا أشد من لهيب ضربات عصا المسيو. كلما خرجنا من

الفصل أثناء الدقائق الفاصلة بين الحصص أقترب من "أولى أول" وأرقب الأولاد الذين يدرسون: "بوى.. جيرل.. سكول". وجدت نفسي أجيب على أحد الأسئلة التي طرحها المسيو بكلمات قرأتها في كتاب "تتشنج سكول" فأعطاني من نصيبي اليومي تسع ضربات أنستني طيلة أشهر السنة الكلمات القليلة التي حفظتها من كتاب الفرنساوي.

إذن، لا يمكن أن أكون من الناجحين. رغم الإعلان المكتوب على السبورة خلف باب مدرسة رأس التين الحديدي، أصدق أنني نجحت في اللغة العربية. والمواد الاجتماعية، والحساب، والهندسة، لكن الفرنساوي.. أبدًا. وكذلك صبيح.. لا أعرف بيته. لقد جئت إلى المدرسة في الثامنة والنصف. أخبرونا بالأمس أن النتيجة سوف تعلن في الصباح الباكر. قال عم عبده:

– سوف يعتمدها حضرة الناظر في الساعة الحادية عشر، ولن تُعلن قبل ذلك.

وجدت قدميَّ تسوقاني إلى محطة مصر. وأشتري تذكرة بتسع مليمات لرؤية "الشموع السوداء" في سينما الدورادو. لم أحرص هذه المرة أن ألتهم قطعة التوفي التي يعطيها لنا الرجل مع التذكرة، همي هو أن أشاهد صالح سليم وهو يحب نجاة الصغيرة. بدا طيلة الفيلم متعجرفًا يعامل الممرضة الحسناء بكثير من الكبرياء والقسوة. ولأنها فقيرة في حاجة إلى المال والمأوى قبلت بعض الإهانة. بل والمؤامرات التي تملأ القصر. ووجدت

نفسها تحب الشاب الضرير الذي تقوم بتمريضه وتدخل السجن بتهمة قتل أخيه.

أعلن الدقة أنه على شباب حارة الفهد من الأهلاوية أن يشاهدوا الشموع السوداء. فصالح سليم مايسترو في الفيلم مثلما في الملعب. رجل حقيقي يسيطر بسهولة على من حوله. ويبدو قوي الشخصية حتى في حبه. أخذت أتأمل وجهه وسط الظلام وأنا أتذكر كلمات الدقة التي يحفظ الكثير من عبارات الفيلم: "كل النساء أشبه برابعة العدوية في النصف الأول من حياتها"، ترتجف نجاة وهي تنظر إليه وتجلس لتغني من أجله. إنه شاعر وفنان هجرته امرأته السابقة وكانت سببًا في صدمته ففقد بصره وأصيب بعقدة من النساء. أصبح في حاجة إلى ممرضة تعتني به. لكن الممرضة امرأة وهو يكره أمثالها. جلست تردد إحدى قصائده التي ألفها عن امرأته الخائنة "إني رأيتكما معًا. فدع البكاء فقد كرهت الأدمعا".. أغنية يحفظها الأهلوية عن بكرة أبيهم في حارة الفهد.. يتألم الرجل عندما يستمع إلى كلماته "إني رأيتكما. إني سمعتكما. عيناكِ في عينيه. شفتاكِ في شفتيه".

أصبح صالح سليم حديث حارة الفهد في الشهور الأخيرة: المنافسة على أشدها بين نبيل والدقة وأحمد عبد العظيم من ناحية. وبين صلاح وأخيه فتحي من ناحية أخرى. أتلذذ بسماع الحوار الساخن حول اللاعب الوسيم صالح سليم الذي استطاع أن يتفوق في الملعب وعلى الشاشة. وأن يشترك في البطولة أمام نجاة الصغيرة في فيلم رائع مثل "الشموع السوداء"،

أعلن الدقة أنه قرأ خبرًا أن صالح سليم سيكون بطلًا أمام فاتن حمامة في فيلم جديد. عقب نبيل:

– وأنتم.. يا زملكاوية. هل لديكم لاعب مايسترو مثله؟

قال صلاح:

– جول نبيل نصير يساوي كل النجاح الذي حققه صالح سليم "بتاعكم".

نجح الجميع في أولى رابع. بل في سنة أولى بأجمعها. البليد منهم والشاطر. كل الذين حصلوا على أعلى وأقل الدرجات في الشهادات التي كان عليّ أن أوقع ما يخصني منها كل شهر نيابة عن أخي حسن. أنا.. مثل إبراهيم خليل. وحسني جابر: الألفة ومساعده. يقف إبراهيم دائمًا على طرف الفصل في طابور الصباح وبثقة يستدير يمينًا ويسير خلف تلاميذ أولى ثالث وعلى الجميع أن يصعد السلم في صمت، ولا داع أن تسبب له اللوم بين أحد المدرسين أو حتى من حضرة الناظر نفسه. يشرف على دخولنا الفصل. الواحد تلو الآخر ثم يجلس فوق المقعد الأخير الملاصق للحائط إلى جوار حسني.

إنهما أطول التلاميذ طولًا. أعرف أنه لا يشترط أن يكون الألفة هو الأطول. فالألفة في أولى أول قصير وصوته خفيض ولا يتكلم كثيرًا مثل إبراهيم خليل الذي يتباهى دائمًا أنه يتحدث مع المدرسين في أمور لا نفهمها جميعًا. وأنه يقرأ الجرائد يوميًا. ويتابع العدد الأسبوعي من جريدة

الأهرام. ويحلل – كما يقول – ما كتبه كاتب كبير اسمه هيكل. يردد كلمات غريبة أثناء حصة المواد الاجتماعية ويقول إننا في عصر الديمقراطية والاشتراكية، ويتباهى أمام الأستاذ إحسان في حصة التربية القومية أنه يحفظ نصوصًا من الميثاق ويقول:

– أحفظ نصفه.. وأفهم النصف الآخر.

عندما حاولت قراءة الصفحات الأولى من الكتاب لم أستطع تكملة سطور قليلة. وفتحت الراديو لأستمع إلى نجاة الصغيرة تردد: "بتقول حبيبة.. وأنا غريبة".. شعر الجميع بالفرح حين جاء ترتيب إبراهيم الخامس عشر في شهر مارس. احمرَّ وجهه بشدة وهو يطوي الشهادة بين يديه وأحنى ظهره الطويل وهو عائد إلى مقعده. لم يحرص، في اليوم التالي، أن يتباهى أنه أعطى الشهادة لأبيه الذي يكتب خطابًا للمدرسين في كل شهر. بل ويأتي أحيانًا للمشاركة في مجلس الآباء.

نجح إبراهيم وحسني ومحمد رجب، ونور الدين. لا أعرف متى جاءوا لمعرفة النتيجة. لكنني لم أتصور أن تظهر بمثل هذه السرعة. انتهى الامتحان أول أمس فقط. لم ننتظر شهرًا مثلما حدث في العام الماضي.

كتب أخي في خطابه الأخير من أسيوط أن نتائج امتحانات النقل تظهر بسرعة. وأن عليّ أن أستعد للأجازة لأنه سيصحبني، بعد عودته، إلى شاطىء ستانلي كعادته منذ أربع سنوات. سوف يعود بعد أسبوع تقريبًا. يحب الذهاب إلى الشاطىء كثيرًا. وخاصة ستانلي. لم نعهد إتقان السباحة

لدى أي من زملائه، لكنهم جميعًا يحبون الوقوف في المياه يرشون أجسادهم بين الوقت والآخر. ويتبادلون الكلمات الجادة التي تزيد من إحساسهم بحرارة الجو. أصبح على مقربة منهم وألتقط بعضًا من عباراتهم فأحس أنني أختلف عنهم لم أسمع أخي يردد يومًا تلك العبارات التي يغزلها إبراهيم خليل والتي يدعي دائمًا أنها تنتمي إلى عالم الكبار وحدهم. عندما سألته عن سبب عدم ميله للسياسة. قال:

– الكلام في السياسة مثل عدمه.. لا طائل منه.

سمعته يردد، يومًا، ونحن على الشاطىء أن شخصًا كان يتكلم بجوارهم بصوت مسموع. وبعد قليل اقترب منه رجلان وطلبا منه أن يذهب معهما. راح ولم يعد. حدثته في أجازة نصف السنة عن إبراهيم خليل. فقال إن ما يردده إبراهيم يتفق مع سياسة الدولة. وهذا ما يجب أن يفعله الجميع. لا يزال لا يحب السينما ولا يعرف شيئًا عن نجومها المحبوبين. سأحدِّثه حين يعود عن الفيلمين اللذين شاهدتهما اليوم: "الشموع السوداء" و"أبو أحمد". إنه يعرف فريد شوقي جيدًا. ويحب أغاني نجاة لكنه لا يفكر في أن يذهب إلى سينما الدورادو. يتباهى دائمًا أنه لم يرتد هذه الأماكن المليئة بالحشرات والصبية الصغار. مع هذا لم يمنحني يومًا القروش الثلاثة كي أذهب إلى إحدى دور السينما المتناثرة في محطة الرمل: الهمبرا. بلازا. ريتس. إنها تعرض الأفلام المميزة فور أن ينتهي عرضها في دور السينما الفخمة التي يدخلها أولاد الذوات: مترو، أمير، رويال، ريالتو، وراديو التي عرضت "الشموع السوداء" منذ عدة أشهر في عرضه الأول. وهرعنا إليها

جميعاً لنشاهد صور صالح سليم ونجاة عبر زجاج الواجهة.. التذكرة هناك بعشرة قروش، وتصل أحيانًا إلى أربعة عشر قرشًا. ولا يمكن لأحدنا أن يدخر هذا المبلغ لمشاهدة الفيلم. أخبرنا أحمد عبد العظيم أنه شاهده مرتين. وقال إن عاشور دعاه إلى زيارته بعد العرض رغم أنه "خلص" كل شيء في السينما. سألت الدقة:

– هل سيدخل أحمد عبد العظيم النار؟

رد بغرابة: لماذا؟

قلت: لأنه يجامع رجلًا..

- إنه يكذب.
- وأنت؟
- وأنا أيضًا.
- ألم تقرب هذا الرجل؟
- نحن نسخر منه ونأخذ نقوده دون أن نقربه.

سألته عن إلهام ابنة عم فتحي، الذي يبيع المكرونة أمام سينما الجمهورية، فرد:

- هذه صح.. نحن نأخذها تحت "الحناية".
- أهذه كذبة؟

- لا..
- ستدخلون النار.
- إذن سيدخل الناس جميعًا النار.
- من تقصد..؟
- أبوك وأمك مثلًا.
- ماذا تقصد؟
- إنهما يمارسان نفس الشيء.
- تحت "الحناية".
- لا طبعًا في البيت.
- لكن أبي ميت.
- يا سيدى أنا أعرف.. أقصد هل تعرف من أين جئت؟
- أمي ولدتني.
- كيف؟
- على كل أم أن تلد.
- لا تلد الأمهات إلا بعد أن يقوم الأزواج بمضاجعتهن.

- مثلما تفعلون مع إلهام؟

- أجل.

- لكن هذا حرام.

- ليس حرامًا مادام هناك زواج بين الرجل والمرأة.

- هل تقصد أن أبي كان يضاجع أمي.

- أيوة يا غبي.. ولولا ذلك ما ولدت.

- لا أصدق.

- اسألها.

- أخاف أن تضربني.

- اسأل عم محمود بائع الفول.

- اسأله عن أمي.

- لا يا غبي.. اسأله عن المضاجعة بين الزوجين.

أطلق عم محمود ضحكته المجلجلة أشبه بندائه العالي عن فوله الزبدة وبليلته القشدة واستند إلى عربته الصغيرة. وقال:

– هؤلاء الأشقياء سيفسدون عقلك. إنهم أكبر منك ويفهمون أشياء كثيرة.

بإلحاح رددت:

– إذن ما يقوله الدقة صحيح.

ربت على ظهري وسألني: ما رأيك أنت؟

قلت: عندما نشتم بعضنا نقول يا ابن الــــــ.....

عاود الضحك مرة أخرى بنفس الطريقة وبسط راحته على قدرة البليلة الساخنة، وقال:

- هذا حرام إذا تم بين رجل وامرأة غير متزوجين، لكنه محلل ومطلوب بين المتزوجين.

ولم أود أن أسأله المزيد. وجدت نفسي شاردًا في أشياء عديدة. فأمي ترتدي الملابس القاتمة طيلة النهار، ولكنها لا تنام إلى جوارنا إلا في ملابسها الملونة. ولم تلد أبدًا منذ أن مات أبي قبل ست سنوات..

يا إلهي.. عليّ أن أعود الآن لأخبر أمي بالنتيجة. سأقول لها إن تلاميذ الصف الأول الإعدادي نجحوا جميعًا، بمن فيهم حسن صبيح، الذي كثيرًا ما حدثتها عنه، وجاء لزيارتنا أول أمس عقب نهاية الامتحانات. سوف تشعر بالسعادة وسأطلب منها قرشين كي أدخل سينما الجمهورية في حفل المساء، لن أخبرها أنني دخلت سينما الدورادو في الحفلة الصباحية، رغم رغبتي أن أحدثها عن صالح سليم و"الشموع السوداء". وكيف أحبته نجاة في صمت ودخلت السجن وهي بريئة. وكيف صفقنا كثيرًا حين وقع

من أعلى السلم ثم اندفع الدم من عينيه. ثم هتف: "شفيت يا أمي.. شفيت". واحتضنته المرأة بحرارة والتهبت أصابعنا من التصفيق. كأن صالح أحرز هدفًا في مباراة الأهلي وبنفيكا.

وأنا أسير بجوار سور "العمود" القريب من المدرسة، وقبل أن أجتاز بوابة المقابر وجدت لساني يتمتم بالفاتحة رحمة على أبي قبل أن أتساءل إن كانت أمي قد جاءت من السوق إلى المقابر، أم أنها الآن في المنزل بعد أن أنهت طقوس الخميس عند مقبرتي أمها وزوجها. فكرت أن ألج البوابة، لكن فجأة رأيت فتحي عبد الحليم قادمًا من باب سدرة. جريت إليه كأنني أطير وقلت قبل أن يلحق أحدنا بالآخر:

– نجحت.. مبارك..

وقف أمامي وهو يقول بثقة:

– أريد أن أعرف من هو الأول على المدرسة.

بدهشة متلعثمة قلت:

- أعتقد ليس الآن.. هل يكتبون هذا في الشهادة؟
- ربما.
- لقد شاهدت "الشموع السوداء".
- هل عرضوه كاملًا؟

- طبعًا..

- كان بودي أن أشاهده معك.

- صالح سليم كان رائعًا.

- أعتقد أن نجاة أكثر روعة.

- أغنية لا تكذبي هائلة.

- نجاة كلها جميلة.. هل عانقت صالح سليم؟

- لا.. بل ارتكنت على صدره.. هل تصدق أنهم عرضوا "أبو أحمد" قبله.. شيء غريب.. أسمع ألن تذهب لتتأكد من النتيجة؟

بنفس الثقة رد: ألم ترها أنت.. إذن.. لا داعي..

قلت: أريد أن أدخل العامود.. لأقرأ الفاتحة على روح أبي.

شدني من يدي وقال: يمكنك أن تقرأها في أي مكان.. وسوف تصل إليه.

وبينما يشير في اتجاه باب سدرة لمحت الشيخ أحمد يجلس في حانوت ابنه. أردت أن أهرول إليه لأخبره بالنتيجة فشدني فتحي وقال:

– إنه يعرف أن كل تلاميذ النقل ناجحون.

حدثني أنني أعطيت النتيجة أهمية لا تستحقها، وقال إن هناك شيئًا أكثر أهمية. وهو المباراة التي سيلعب فيها أحمد عبد العظيم عند الشركة بعد قليل. وأن فريقه يراهن أن يفوز بكأس الأسد المرعب. وأن المباراة ستكون ملتهبة بين أسود حارتي الفهد والحارس. لم أود أن أسأله كيف لعبد العظيم أن يشترك في المباراة وأمامه امتحان الإعدادية صباح السبت. لكنني تصورت كيف سيكون وقع رسوبه على أبيه وعمته، أمي، التي كثيرًا ما وقفت لأخيها بالمرصاد حين ضرب ابنه في العام الماضي.. يا للمجنون.. ها هو ينظم مباراة الموسم من أجل كأس الأسد المرعب. قال عبد الحليم:

– علينا أن نشجعه. فحارة الحارس سترسل كل أبنائها لتشجيع فريقها. وأنت تعرف أن حارة الفهد أصغر. ولذا يجب أن نذهب جميعًا..

أخبرني أن المباراة ستتم بجوار شركة الغزل في الشارع الذي يفصل بين فرعي الغزل والنسيج، والمؤدي إلى ترعة المحمودية. اعتدنا اللعب هناك، خاصة في المباريات الساخنة. أقيمت آخر مباراة على أضواء الشركة الكاشفة. أما اليوم فسوف تبدأ المباراة في الثالثة والربع عقب خروج الوردية الأولى. خاصة أن العديد من أعضاء الفريقين سيؤدون امتحانًا يوم السبت، لكن تصفية الحسابات أهم عشرات المرات من الامتحانات. سمعت عبد العظيم يردد أول أمس أنه سيلحق بحارة الحارس كل هزيمة وأن انتصاره في هذه المباراة أهم من حصوله على الشهادة الاعدادية. وأنه سيسدد ستة أهداف كاملة. وسيتغلب على البغل. رأسه قوية. تنطح. وبها قرنان قويان يمكنهما أن يحطما أي حارس تقترب منهما.. لذا فما أن تأتي

الكرة إلى رأس البغل، أو إلى قدمه حتى ينطح برأسه. ويركل بقدمه، ويندفع كالثور الهائج إلى الجول، ويعلو تصفيق مشجعي حارة الحارس هاتفين برأس البغل. الذي يقف يهز قرنيه بثقة وهدوء، ثم يجري في مكان المباراة وأن شيئًا لا يعنيه سوى أن يحقق هدفًا جديدًا.

عندما دخلنا حارة الفهد، رأينا أغلب صبيتها يقفون على أقدام وسيقان استعدادًا للمباراة. ارتدى أحمد عبد العظيم الشورت الأبيض والفانلة الحمراء. ورغم أن نبيل أهلاوي متعصب، إلا أنه آثر أن يلعب بالبيجامة. أما الدقة فقد اعتذر عن الاشتراك في المباراة واقترح أن يكون محمد عبد الحليم هو حارس المرمى لأنه الوحيد الذي يمكن أن ينطح رأس البغل، ويصد الكرات القوية التي يركلها. واختير من خارج مجموعتنا السداسية، كل من أشرف، وفهمي الخنش، وسامح الفقي. وقبل أن يتحرك فوج حارة الفهد إلى الشركة ذهب أحمد عبد العظيم ونبيل إلى لؤلؤ، وأخبراه أن المباراة ستكون على شرفه وأن فوز حارة الفهد بالكأس سيعني أن لؤلؤ قد توج أسدًا مرعبًا لشارع التميمي. قال الرجل أنه سيمنح أعضاء فريق حارة الفهد، في حالة فوزه، عود قصب، ودورًا مميزًا للتأرجح في أرجوحته الجديدة التي قام بتركيبها أخيرًا بمناسبة اقتراب العيد الكبير.

جلست على الرصيف، إلى جوار عبد الحليم، بينما وقف أعضاء الفريقين يستعدون ويسخنون أنفسهم، ورغم أن موعد المباراة حدد في الثالثة والنصف. إلا أن المباراة لم تبدأ إلا بعد ذلك بفترة طويلة. جاء عيد الهندي، خصيصًا، ليكون حكمًا للمباراة المنتظرة. وعرفنا أنه سيأخذ جنيهًا

كاملًا مقابل التحكيم. وجدت نفسي أرقب أعضاء فريق الحارة خاصة علي البغل. وتساءلت كيف يمكن لفريقنا أن يتغلب عليه. صحيح أن نبيل ماهر وماكر. لكن أحمد عبد العظيم لم يحرز هدفًا قط في مثل هذه المباريات المهمة. وهناك شك في أن يتمكن محمد عبد الحليم من صد كرة واحدة يطلقها على البغل أو محمود السكران. أو علاء الحموي. أو رفعت الفناجيلي مهندس الكرة في كرموز. يتصرف مثل رفعت الفناجيلي. يقص شعره مثلما يفعل. ويتكلم بنفس الطريقة. قبل أن اسمه الحقيقي هو محمد حسان وأنه مجنون بالفناجيلي. يملأ جدران غرفته بصورة مثلما نفعل مع عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة. انطلقت صفارة الهندي لتعلن بداية المباراة.

واشتعلت معركة الأقدام والرءوس انتقلت فيها الكرة الشراب بين رءوس وأقدام وأيادي اثني عشر شخصًا يمثلون فريقي حارتيْ الفهد والحارس. تنطلق الهتافات والصرخات من المشجعين كلما حقق فريقهم نصرًا، أو كاد أن يحققه. يضرب بعضهم كفًا بأخرى كلما أفلتت من فريقه فرصة للفوز والكسب. بدا فريق الحارس كعادته أقوى وأكثر تمكنًا. وبدا عبد العظيم بقامته القصيرة أشبه بالكرة يتدحرج معها واستطاع أن يحرز أول هدف لفريقه. بينما كان الفناجيلي قد حقق هدفين بالإضافة إلى الهدف الذي أحرزه رأس البغل. كان يمكن للمباراة أن تنتهي في أقل من ربع ساعة لولا المجهود الذي يبذله حارس مرمى فريقنا في صد الضربات التي توجه إليه. أحس البغل بمدى خطورة حارس مرمى فريق الفهد فالتقط كرة وحاول أن يسدد له ضربة رأس تطيح بدماغه خارج الهدف.

إلا أن محمد عبد الحليم كان أشد ذكاء فالتقط كرته وقذفها بسرعة إلى نبيل الذي حاور كل من علاء والسكران ومهندس كرة كرموز ثم أفلت من حارس المرمى ووقف يمرر الكرة بين الحجرين الكبيرين. فبدا البغل أشبه بالأسد المرعوب وهو لا يصدق أن فريق حارة الفهد أحرز هدفًا. بعد قليل فوجيء البغل بفهمي الحنش يحرز هدفًا ثالثًا في فريقه فأقسم في نفسه أن ينتقم منه. وعندما أحرز هدف فريقه الرابع بصعوبة وقف مشجعو حارة الفهد يعترضون على الهدف مؤكدين أن الكرة مرت من فوق الحجر. إلا أن الحكم رفع يده وطلب تكملة اللعب. هتف الدقة الذي كان يقف خلفي:

– سيما أونطة.. هاتوا فلوسنا..

وبدأت الأعصاب تشتد والأقدام تتحرك مليئة بالتوتر، والرءوس تنخفض وترتفع ويسيح العرق في فانلات اللاعبين من كلا الفريقين. واشتد أوار المباراة أكثر عندما أشيع بين مشجعي حارة الفهد أن لؤلؤ أرسل من طرفه رسالة يؤكد أنه سوف يجعل سكان الحارة ينامون قبل المغرب إذا انهزموا أمام حارة الحارس. قلت لأحمد عبد الحليم:

– لا أعتقد أن لؤلؤ يمكن أن يردد مثل هذا الكلام.

وهو يتابع بعينيه الكرة التي تطلق بين الحجرين انتفض من فوق الرصيف وهتف:

– عاش لؤلؤ.. ملك المشجعين.

وانطلقت حناجر أبناء حارة الفهد هتف لنبيل الذي سجل هدفًا جديدًا قربنا من النصر. ثم وقف وسط الساحة ووضع يده جانبه ومسح عرقه.. بينما هتف الدقة:

– أيوة يا صالح.. يا مايسترو..

تنبهت أنى رغم إعجابي الشديد بصالح سليم الذين ينادون نبيل باسمه، إلا أنني لم أشاهده قط يلعب الكرة. لذا لم أفهم أن صالح سليم يضع يديه في جانبيه إلا عندما نادى الدقة ابن خالته "نبيل" يحييه على الهدف الرابع الذي أحرزه لصالح فريق حارة الفهد. بدا وجهه أكثر احمرارًا. بينما تحرك أحمد عبد العظيم بعفوية أكثر. وبرزت عينا البغل كأنه يريد أن يفعص كل الفريق بقرنيه، وجرى نحو الكرة يدفع هذا بكتفه وذاك بقدمه. إلا أن الحكم رفع يده عاليًا وأعلن إيقاف المباراة. وفجأة ساد المكان صمت وتطلعت العيون إلى الهندي أشهر لاعب في كرموز قبل خمس سنوات. وقد وضع صفارته بين أسنانه، ودهن شعره بالفازلين فانطلق "أليف" نحو الأمام حاشيًا في جنباته أتربة كثيفة بيضت شعره الأسود. أشار إلى البغل وقال:

– نحن نلعب، ولا نتعارك. ما رأيك؟

قبل أن يرد البغل بكلمة واحدة. رأيت أحمد عبد العظيم ينسحب فجأة، وبسرعة من الساحة ويقف على الرصيف وهو يمسح وجهه بطرف الفانلة الحمراء التي يرتديها. ثم اقترب من أبيه، خالي عبد العظيم، الذي ظهر بغتة في الساحة، كعادته، كنت أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى. لكننى

نسيته تمامًا وسط الحماس الناري الذي ساد المباراة. التفت البغل والهندي إلى خالي. ولكن أحدًا لم يجرؤ على الكلام، سب الرجل ابنه كأنه يشتم الجميع. ثم أشار له أن يسبقه إلى البيت. لم يعترض بكلمة واحدة، انسحب بتخاذل شديد بينما اشتدت أعصابنا. لم أتوقع أن يسبني مثلما فعل مع ابنه الذي سيؤدي امتحان الإعدادية صباح بعد غد. لم يتحرك خالي من مكانه إلا بعد أن اختفى ابنه من شارع البركة. ثم نظر إلى نبيل وقال له:

– وأنت.. هل يعرف أبوك أنك تلعب الكرة وعندك امتحان؟

لم يرد نبيل، إلا أن الدقة تجرأ كعادته، وقال:

– باق هدف واحد فقط.. يا عمي.. وسننال الكأس..

لم يضحك أحد. انسحب خالي من المكان وهو يشبك أصابعه خلف ظهره متجهًا نحو حارة الفهد. لا يمكن لأحد أن يتكهن بما سوف يفعله بابنه. فرغم أن أحمد في الخامسة عشر من عمره. إلا أنه كثيرًا ما ينال "علق" ساخنة على يدي أبيه. مثلما حدث في العام الماضي عندما رسب في الإعدادية ولم ينقذه أحد من بين يديه سوى جده، الشيخ أحمد، وعمته أم حسن. جاء ليلتها ليبات بيننا. ولم يكف طيلة الليل عن الحديث معي عن عاشور وداوود والبنت إلهام وصديقه ميشيل. رد عندما سألته عن شعور الطالب الراسب:

– لا أعرف..

ثم استطرد في حكاياته عن إلهام، وكيف جاءت له تحت "الحناية" يقبلها ويضع يده بين فخذيها. سألته عن سبب هذه التصرفات. فرد:

– متعة.. جرب..

قلت يومها: أجرب.. ماذا.. إلهام؟

– لا.. المتعة بدون إلهام..

– لا أفهم..

وأخذ يشرح لى كيف يمكن أن أحبس نفسي في دورة المياه وأدلك الصابونة بالمياه، ثم أدعك نفسي بشدة وسوف أشعر بمتعة لا حد لها.. وبعد قليل انسحبنا إلى دورة المياه وأعطاني الصابونة. وفتح الحنفية ثم خرج وأغلق الباب.. ووقف بالخارج يسألني بين وقت وآخر عما أحس به. ويزيد من حماسي.. تمنيت أن يرسب أحمد عبد العظيم كل ليلة كي يمكنه أن يأتي إلينا ويحكي لي عن إلهام وتضاريس جسدها الصغير، ويعلمني كيف أستمتع. بعد أسابيع عرفت أن فتحي عبد الحليم يمارس نفس العادة. منذ فترة بعد أن تعلمها من الدقة. وأنه يعتقد أن أخاه محمد تعلمها أيضًا فكثيرًا ما أحس به يتسلل إلى الحمام ويغلقه على نفسه بدون داع. عندما فاتحت جدي الشيخ أحمد بما أفعله لم يغضب كما توقعت، بل تحسس شعري وأنا أصف له المتعة وقال:

– طبعًا حرام..

– يقولون إن من يفعل هذا سوف يدخل النار.

– طبعا. أليست محرمة؟

– وأن بطن كفه سوف يحمل يوم القيامة.

– هذه اجتهادات ليس لها أصل في القرآن والسنة.

– إذن ماذا أفعل؟

– أقرأ القرآن.. ومارس الرياضة..

وأخذ يعلمني كيف أبرز مخارج الحروف وأنا أتلو "هل أتاك حديث الغاشية"..

وددت أن أهرع نحو خالي عبد العظيم وأخبره أن أباه طلب مني ممارسة الرياضة. وأن عليه ألا ينهر ابنه لأنه يلعب الكرة، خاصة أمام أصحابه. وخاصة أيضًا، أن خروج أحمد من المباراة سوف يجعل موقف حارة الفهد حرجًا في الحصول على كأس الأسد المرعب. فسرعان ما بدأت المشاورات من أجل دخول لاعب بدلا من أحمد عبد العظيم. اقترح نبيل أن يدخل محمد عبد الحليم كمحاور، وأن يقف شريف حارسا للمرمى.. لكن الدقة اعترض وأسرع بالقفز داخل الساحة وشمر بنطلونه وقال:

– أنا الأحق.. حتى من عبد العظيم الكبير.

وانفجر الجميع ضاحكين، خاصة حين وقف يهز جسده على طريقة يكن. عاد محمد إلى مكانه وبدأ الجميع كأنهم يدخلون مباراة جديدة. عدنا إلى أماكننا كمتفرجين، وانطلق صفير الهندي. وتدحرجت الكرة مرة أخرى بين الأقدام. في أول الأمر بدت خجولة تتحرك على استحياء، ثم اندفعت بين قدمي، وفوق رأس البغل الذي سرعان ما استعاد حيويته فانطلق يسدد الهدف الرابع لفريق حارة الحارس.

وسرعان ما نسينا أحمد عبد العظيم، والمصير الذي يمكن أن يلقاه، خاصة عندما اندفعت الكرة أمام قدمي الدقة قوية. فقذفتها قدمه لتصد في رأس الفناجيلي كأنه يريد أن يطيح بها. ثم اندفع الدقة خلف كرته بسرعة غريبة، وقذف بها لكن محمد السكران اندفع أمامه ووضع قدمه في طريقه فعرقله. فانطلق الدقة برأسه وقدميه يدخلان الهدف بدلًا من الكرة.. انبطح أرضًا فتوقفت الأنفاس من جديد وخاصة صوت ارتطام الجسد بالأرض كان مكتومًا. أسرع البغل ناحيته فقام برفعه من فوق الأرض. روعني أن التراب قد التصق بوجهه فتحول إلى طين أسود لكثرة العرق الذي ينسال منه..

مسح البغل رأس منافسه بطرف فانلته الصفراء وهو يطلب بعض المياه.. بينما راح الدقة يشير أنه لا داع وأنه أفضل الآن.

وهتف الحكم:

– قلنا لا داعي للعضلات القوية في الملعب..

وعلق الفناجيلي:

– اللعب هندسة..

هنا، اقترب السكران من الدقة راح يربت عليه، ويقبله.. وانطلقت الصفارة من جديد. هرولت قدما الدقة، وخاصة بعد أن أحرز علاء الحموي الهدف الخامس لفريقه. وارتسم اليأس على وجوه مشجعي حارة الفهد. فلم يعد هناك سوى هدف واحد يمكن أن يسدد في أى لحظة. ويضيع الكأس من أبناء حارتنا. التهبت المباراة أكثر. واندفعت الكرة بين الفريقين من أجل تحقيق الفوز. واستطاع نبيل أن يتسلل، كالثعلب الماكر، وأن يختطف الكرة بين أمشاط قدميه. وانطلق بها بكل خفة ليسدد هدفاً مميتًا ضد فريق الحارس.. فاندفعت الصراخات الحادة:

– حلوة.. يا مايسترو.. حلوة.. يا مايسترو.. يا "غائظهم"، يا كائدهم..

تدحرجت الكرة من جديد.. تغازلها الأقدام وتضربها. وتدفعها بعنف كأنها لا تريدها حتى دفعها الدقة إلى المرمى بعد أن أفلت من محاولة كسر جديدة كاد أن يكررها السكران.. ثم من محاولة اعتراض جربها البغل.. لكن رأسه هذه المرة لم يسعفه.. لا في التفكير. ولا في صد الكرة..

وقفنا نرقص حول نبيل وهو يستلم كأس الأسد المرعب من عبده الهندي الذي صافح أعضاء فريق حارتنا بإعجاب. بينما ترددت همساته أن الكرة حظ. وأن فريق حارة الحارس يلعب أفضل، مائة مرة، من فريق

الفهد. وأنه لا حق لنا هذه المرة في الكأس.. وسمعت السكران يعلق في حسرة:

– دعهم يأخذونه مرة.. فسوف نسترده منهم في دورى الأسبوع القادم.

وبدأت الساحة في لفظ اللاعبين والمشجعين الواحد تلو الآخر. كان النهار قد حاول الرحيل. ووقف فريقنا فوق الرصيف يتحدث عن الفوز الذي استحقه. بينما يبدل بعض أعضائه ملابسهم. وقف محمد عبد الحليم يفتش عن حذائه فلم يجده. فأصابه الهلع وراح يردد أن أباه سوف يخرب بيته لأن الحذاء جديد. أجل. حذاء العيد. قال بعضهم أن فريق حارة الحارس سرقه نكاية بنا. وردد بعضهم الآخر أنه رأى أحد المشاهدين يرتديه. وبينما الجميع في حيرتهم التي بددت جو الفوز.. تذكرت أمي التي لعلها أصيبت بالقلق لغيابي.. هنا أدركت أنني لم أخبرها بعد بأخبار النتيجة فهرولت إلى المترل وأنا أتحسس حذائي الذي لم أخلعه..

السنة الثالثة

انتهى أول أيام العيد الصغير..

أمامنا يومان آخران للمتعة والنزهة والذهاب إلى السينما، والوقوف إلى جوار الشرفة أنتظر خروج جميلة من نافذها لتطل عليّ كعادهّا. لقد فعلت ذلك، اليوم أكثر من مرة، تفتح مصراعي النافذة. ثم تطل على الحارة تتطلع ذات اليمين واليسار. ثم ترفع عينيها إلى نافذتنا.

فتراني أتحرق لإطلالتها. تكهربني عيناها العسليتان بضع ثوان، ثم تسرع وتغلق النافذة مرة أخرى كي تكرر نفس الإطلالة بعد ربع ساعة. في نظرهّا الأولى هنأتني بالعيد دون أن يعبر وجهها عن ذلك. عيناها فقط هما اللتان تكلمتا. في المرة الثانية هنأتني مع إضافة جملة جديدة: "العام القادم.. في نفس النافذة". لم تكن قد استيقظت بعد عندما تجمعنا إلى جوار باب المترل متأهبين للذهاب للصلاة. أنا.. ببيجامتي الجديدة وحذائي اللامع إلى جوار أحمد عبد العظيم وفتحي عبد الحليم وأخيه محمد.. بعد قليل نزل حسن حاملًا سجادة الصلاة وسأل عن عمه. قال ابنه الأكبر محمد إنه سوف يلحق بنا في مسجد القومندان. جاءنا صوت خالي عبد العظيم بأن ننتظر..

جلسنا نردد تكبيرات الصلاة في الخلاء. حاولت أن أبعد عن ذهني شبح جميلة الذي يقترب مني رغم كل التكبيرات المدوية في رأسي ولساني..

لكن أبدًا. إنها هنا. أتصورها تفتح النافذة وتنظر إليّ. عندما نادى المؤذن لقيام صلاة العيد وقفت إلى جوار أحمد عبد العظيم الذي جاء معنا لأول مرة.. وأخذنا نكبر. ونحن نركع على الأرض شعرت أن الإمام أطال فترة الركوع أكثر من المدة التي يمكن أن نردد فيها "سبحان ربي الأعلى" ثلاث مرات. فجأة قلت لأحمد عبد العظيم وأنا لا أتحرك من مكاني:

– قل أيضًا.. سبحان ربى الأعلى..

عندما سلمته يدي عقب الصلاة، قال ساخرًا:

– هل تتكلم أثناء الصلاة.. يا للمصيبة!!

قلت: علمني جدي أن أفعل هذا.

كرر جملته مرة أخرى.. وعلق أخي حسن:

– لا.. حرام.. صلاتك ملغاة..

قلت كذبًا: علمني جدي ذلك..

عندما وقفت أمام مقبرة الشيخ أحمد أحسست بالحسرة وأنا أتأمل الشجرة الوارفة فوقها. كان معنا في العيد الماضي. قال يومها للحانوتي أن يجهز المكان على أحسن ما يكون لأنه سيجيء خلال فترة قصيرة. وبعد أسابيع راح يرقد فوق سريره لآخر مرة.

قال خالي عبد العظيم إنه يحتضر. لم أفهم ماذا يقصد. لكنني فهمت ما قالته أمي عن أخيها الذي لم يأبه لاحتضار أبيه وراح يدغدغ زوجته الجديدة البضة الذراعين. لعل الشيخ أحمد سمع ضحكتها وانتشى، فابنه يجيد اختيار السيدات الجميلات مثلما كان يفعل. وها هو يتحدث مطمئنًا أن عبد العظيم سوف ينجب له نسلًا جديدًا يحفظ اسمه. الشيخ أحمد بدوي. صاحب العقار رقم 27 بحارة الفهد. وأب لأربعة رجال وثلاث بنات. درس القرآن الكريم وحفظه عن ظهر قلب. حفظ آلاف الأحاديث النبوية ونافس الشيخ حسن البصَّال في خطبة الجمعة في مسجد القومندان. وكتب في أوتوجرافي كلامًا جميلًا.. ودعانا للإقامة معه في شقته بالدور الثالث. وقيل إنه ترك مبلغًا من المال اختلف عليه الأبناء أثناء إقامة السرادق فضرب أحدهم أخاه، وكسر الثاني دولابه وفتش عن النقود بلا جدوى، تسربت الأقاويل حول أم حسن التي انفجرت في أحدهم وعيَّرته بأنه وقف يُقبِّل زوجته أثناء وفاة أبيه، عندما تدخل أخوها محمد ليحسم المشكلة تبين للجميع أنه يريد أن يستأثر بكل ما تركه أبوه مثلما كان يفعل في حياته. قال عبد العظيم:

– يا كوهين.. ابعد عن تراب أبيك وسوف تحل المشكلة.

لم يستطع أحد أن يمس الدولاب الكبير المليء بالكتب عندما جاءوا ليأخذوا سريره في صباح اليوم التالي. قلت إن جدي أمر أن آخذ هذه الكتب عقب وفاته. تركوا الكتب الصفراء الممزقة في دولابها من أجل أخي حسن. عندما عاد من أسيوط أثناء أجازة نصف السنة كنا نترك له

غرفة جده كي يتحدث إلى خطيبته التي سوف تُزف إليه بعد أسابيع. بالضبط في آخر شهر يوليو. سوف يقيم في شقتنا. وعلينا أن نصعد إلى شقة السطح. جميلة لا تعرف أن عليها أن ترفع عينيها، بعد ذلك، إلى السطح بدلًا من الطلوع إلى نافذتي في الدور الثالث، اكتشفت مدى اهتمامها بي بعد رحيل الشيخ أحمد بأسبوع. قال فتحي عبد الحليم:

– إنها تحبك.

لم أفهم ماذا يقصد. تطلعت إلى نافذتها. تنظر إليّ ثم تغلق النافذة. حين لعبنا الكرة أمام بيتهما تعمدت أن أقف حارسًا للمرمى أسفل نافذتها. وجدت نفسي أصرخ وأزعق كلما استطعت صد كرة موجهة إليّ. أحس أنها تتطلع إليّ من مكانها. لم أنظر نحوها كثيرًا. أعرف أنها هناك. حتى لو دخلت. شعرت أنها لا يمكن أن تضربني مثلما فعلت صباح. إذن لماذا الاهتمام؟. ابتسمت أمي ولم تعلق بكلمة واحدة عندما حكيت لها الأمر. قالت:

– حب بريء وطاهر..

سألتها: هل يمكنني أن أتزوجها؟

ضحكت؛ فعاجلتها: أجل. وأسكن هنا في نفس الشقة مع حسن.

ضحكت أكثر. أحسست أن أمي تصبح جميلة أكثر وهي تضحك. وددت أن أؤكد لها أنني لا أمزح. لعلها نسيت حكاية صباح. اعتذرت لها بعد أيام وقلت:

- وافقت أن أتنازل لحسن عن الشقة وأن نصعد إلى شقة السطح.. ولن أطلب الزواج منها إلا بعد أن أحصل على الإعدادية.

لم يبق سوى عام لكي أحصل على الإعدادية. سيكون لى شارب، وأستطيع أن أذهب إلى أبيها المتجهم وأخبره أنني ناجح في الإعدادية وأصبحت أهلًا لابنته الجميلة. المصيبة هي كيف أدخل إليه. ناقشت "صبيح" كثيرًا في كيفية الدخول إلى الرجل. لو عرف أن ابنته تحبنا لوضع المزاليج حول النوافذ. لعله لم يذق طعم هذه النظرة الطويلة التي تبادلناها وهي تنزل السلم فالتقت عينانا عبر الفتحات الحديدية.

وقفت برهة لم ألحظ ارتباكها. لكن، لعلها أحست بثقتي الشديدة في عيني وهما تتركزان عليها، كأن بهما قوة أجبرتها على المثول لحظة على السلم. ثم نزلت بثبات. توقعت أن تفتح الباب وأن تتكلم بلسانها بدلًا من عينيها. لكنني تمنيت ألا تفعل ذلك. فهذه النظرة جعلتني أشعر أنني أسبح في أنهار اللبن الحليب التي حدثتني عنها أمي يومًا، وقالت إن الجنة مليئة بها. أنهار بلا بداية ولا نهاية. تشرب منها وتسبح فيها، حتى وإن كنا لا نجيد العوم. تمنيت لو أن الشيخ أحمد بيننا كي يحدثني أكثر عن هذا النهر. لعله تضايق حين كذبت بشأن الكلام أثناء الصلاة.

عندما عدنا من المقابر وجدت نافذتها مفتوحة، فأسرعت إلى النافذة، فرحت، وألقت بنظرة "المعايدة". كنت قد ارتديت بدلتي الجديدة عند النظرة الثانية. حين أطلت للمرة الثالثة لم أكن أستند على إطار النافذة.

بل وقفت خلف نافذة شقة السطح أتطلع إلى عينيها تبحثان عني، فيطول زمن وقوفها بالنافذة ربما أظهر. خرجت بعد قليل إلى سور السطح فرأتني، ونظرت. ثم أغلقت نافذتها..

وقفت عند ناصية الشارع في الثامنة والنصف. البدلة بنية، والشوارع نظيفة، والمياه مرشوشة. وجموع الناس تعبر حارة الفهد متجهة إلى المقابر. وراديو المقهى المقابلة ينطلق بأغنيات العيد التي يحبها حسن كثيرًا. يروح رأسي في اتجاهات عديدة بين الذهاب إلى السينما أو البقاء في حارة الفهد ألتقط النظرات الجميلة التي ستزيد جرعتها في العيد. لقد نجح وسننتقل إلى الصف الثالث الإعدادي، وعلى الناجح – كما يغني عبد الحليم – أن يفرح. لكن العيد طويل. ويمكن أن تتلقف الكثير من النظرات. بل يمكن أن أحاول مجددًا أن أحادثها، لقد فشلت في المرات السابقة. يوم أن ذهبت وراءها إلى السوق. ويوم أن ركبت معها قطار أبي قير وهي ذاهبة إلى المدرسة. يومها اقتربت مني لكن الكلمات تسربت من تحت لساني. ولم أمسك بكلمة واحدة تسعفني حتى كلمات الغزل الفرنسية التي تعلمتها من المسيو إسماعيل لم تسعفني في أن أحدثها. كتب لنا المسيو هذه الكلمات على السبورة فتلقفها بعضنا، على وجه السرعة، وسرعان ما حفظناها. كتب لنا كلمات أخرى يمكننا أن نضعها في رسائلنا إذًا.. إذا كتبناها لمن نحب.. وبعد أسابيع سطرت رسالة حب بالفرنسية. استحييت أن أعرضها على المسيو.. لكنني سألته أن يكتب لنا في كل حصة كلمات جديدة. راح يردد وهو يسلمني شهادة امتحان نصف العام:

– هناك ناس تحسنوا كثيرًا هذا العام.

مع هذا لم أحقق سوى خمس وثلاثين درجة من ستين في امتحان آخر العام.

فتحي عبد الحليم هو أول من لحق بي على ناصية حارة الفهد. عاجلني قائلًا:

- اطمئن، فهي تحبك أنيقًا أو صعلوكًا..

وجدت عينيَّ تروحان، تلقائيًا، إلى نافذتها، وقلت:

– لم أرها بعد..

قال: يا كاذب.. رأيتها مرتين تنظر إليك..

وقلبي يخفق سألته: معقول.. الآن؟

ضحك. إنه يعرف الحكاية منذ أن بدأت. يتابع تطوراتها أولًا بأول. ويسمع مني، يوميًا، تقريرًا عما حدث في اليوم السابق. ونحن نسير إلى مدرسة رأس التين إلى جوار السور العالي للمقابر. أحكي له عما فعلته، أو ما حاولت أن أفعله. لم أشعر أن مللًا تسرب إليه، فالحكاية جديدة علينا، يبدو أننا سوف نصبح كبارًا عما قريب. عندما أخبرني بشأن "الترمسة" التي برزت في حلمة صدره قلت له إنني لم أشعر بها بعد. قال يومها:

– لم تصبح رجلًا بعد.. فهذه علامة الرجولة.

قلت له: لكن صوتي أصبح أجش.. وهناك فتاة تحبني.

رد: لا يكفي..

أردت أن أخبره، اليوم، أن الترمسة برزت أخيرًا وأنني لاحظتها وأنا أتوضأ قبل صلاة العيد، قبل أن أتكلم رأيت نبيل يخرج من بيته. يبدو أنيقًا في بنطاله الأخضر وقميصه الأصفر. قال قبل أن يحيينا:

– هل هناك شخص يرتدي بدلة في شهر يونيو؟

وسأل:

– أين الباقون؟

أخبره فتحي أن أخاه يرتدي ملابسه، وأن أحمد عبد العظيم يساوم أباه على العيدية، بعد قليل اكتملت مجموعتنا السداسية، وبدأنا في التشاور حول السينما التي نبدأ بها العيد. قال محمد عبد الحليم إن رشدى أباظة سوف يحطم سينما الجمهورية عن بكرة أبيها بفيلمين يعرضان في نفس الحفل، وأن علينا أن نشارك في هذا الحدث. وأكد أن رشدي أباظة يلعب في كلا الفيلمين دور المجرم الشرير. ففي "ملاك وشيطان" يختطف فتاة صغيرة من أبويها ويطلب فدية كبيرة. وفي "الرجل الثاني" يؤدي دور مهرب دولي خطير. اقترح أحمد عبد العظيم أن نذهب إلى سينما بارك فهي التي نبدأ بها عيدنا دائمًا، وهي تعرض اليوم فيلم "الخطايا" لعبد الحليم حافظ. اعترض نبيل وقال:

– شاهدته في سينما راديو في العيد الصغير.

قال محمد عبد الحليم: وأنا أيضًا..

هنا تدخل الدقة ليحسم الأمر قائلًا:

– نسينا بول براينر.. ملوك الشمس.

سأل عبد العظيم بلهفة: أين؟

تدخلت بسرعة: في سينما بلازا.

بنفس اللهفة قال عبد العظيم: ملوك الشمس.. بلعم.

فجأة انتصب، ورفع يده إلى أعلى كأنه يمسك سيفًا. ثم أبعد بين ساقيه. لم أفهم شيئًا مما فعل إلا عندما شاهدت بول براينر أمام الهرم المدرج وينادي أن ينزل له الملك بلعم، كي يصافحه، ويعقدا معاهدة صداقة بين المايا وشعبه. لقد فوجىء النسر الأسود بأبناء عشيرته يأتون بالمئات لمحاصرة المعسكر الذي تعيش فيه قبائل المايا.

ظن البعض أن المايا قتلوا زعيمهم الأصلع. إلا أن الرجل الأسود أشار لهم أن يلزموا أماكنهم. وامتثلوا لأمر زعيمهم الذي سار بخطى متثاقلة يهز ردفيه. فانطلقت الصالة ضاحكة. بينما صاح عبد العظيم:

– أيوه.. عندهم أيضًا عاشور.

ضحكنا ونحن نتابع النسر الأسود وهو ينادي "بلعم".. ونزل ملك المايا ليصافح خصمه اللدود، فهو مضطر لهذه المصالحة؛ فهو يعرف أن الرجل الأسود لم يفعل ذلك إلا من أجل العينين الساحرتين للفتاة سيشل.. ابنة المايا الجميلة. فالنسر الأسود هو المنافس الأول له على قلبها. استطاعت أن تستأنسه وتحوله إلى شخص وديع بنظراتها اللامعة مثل نظرات جميلة من أعلى نافذتها. علمته بعينيها كيف يحبها ويمتثل لما تطلبه منه. فحولت أعداءه إلى أصدقاء. بل أنه وافق على الصعود إلى المذبح كي يموت من أجلها. ثم فاجأها حين قال: "لن تقتلوني. فأنا لا أتبع هذا الدين كي أموت من أجله". غادر المذبح وشعر بالفرحة تنساب بين عيني سيشل. لقد عقد معاهدة سلام من أجل هاتين العينين، وعليه أن يقترب أكثر من صاحبتهما. لذا أحس بلعم بالخوف من المعاهدة. قد تكون سببًا في أن يتمكن من الدفاع عن أرضه الجديدة، وقد تكون سببًا في ضياع سيشل التي تفضل عليه النسر الأسود.

لم يكف عبد العظيم عن تقليد بول براينر وهو ينادي "بلعم" من خارج السور. هذه المرة لم يستطع أن يجعلني أضحك وأنا أحدث الدقة عن عيني شيرلي آن فيلد. أوقف الدقة أعضاء الشلة. وصاح:

– اسمعوا. أمامنا عاشق. إنه مشدوه بعيني الفتاة.

وقف عبد العظيم أمامي بنفس طريقته، وقال: بلعم..

ثم أكمل بعد أن اعتدل: يا حلو.. الفيلم كله جميل، الممثلون، والإخراج والقصة..

قلت باستكانة:

– طبعاً. ضرب بول براينر كل أعدائه.. وكاد أن يفنيهم لولا الرمح الذي أصابه.

قال نبيل:

– الفيلم فيه معاني كثيرة جميلة.. مثل الرمح الذي كسره بول براينر في النهاية دليلًا على نهاية الحرب.

قلت: والحب بين النسر الأسود والفتاة ذات العينين الساحرتين..

قال الدقة ساخرًا: أصابت الولد لوثة. نقول لك ثور.. تقول احلبوه.. بول براينر لا ينفع في الحكايات الرومانسية..

قاطعته:

– ماذا تعني الرومانسية؟

ضرب كفًا بأخرى وكرر نفس الجملة وأكمل:

– لست فائقًا لك.. أنت صاحب دماغ تخينة..

في طريقنا إلى المنزل أمسكني نبيل من يدي وحدَّثني عن الرومانسية، وقال إن الفيلم الذي شاهدناها اليوم، قبل ملوك الشمس هو

أكثر رومانسية. فالحكاية التي ربطت بين الجندي والممرضة هي أعمق في معانيها من حكاية النسر الأسود. لم أفهم الكثير مما قاله. فشيرلي أجمل بكثير من جينفر جونز التي جسدت دور الممرضة في الفيلم القديم الذي عرضته سينما بلازا اليوم، لقد امتلأ الفيلم بالحوار وخلا تمامًا من أي "ضرب". وبدا أن عامل العرض سرق نصفه كي يتمكن من عرض "ملوك الشمس" كاملًا. لم أشأ أن أخبر نبيل بحكاية جارتنا التي أحبها منذ عدة أشهر حتى لا تسري حكايتنا على ألسنتهم رغم أنه أكثرنا فهما لمسائل الحب، ليس لأنه أكبرنا سنًا، ولكن لأنه يؤمن بالحب البريء كالذي بيني وبين جميلة. يفخر أن عدد البنات اللائي عرفهن أكثر من عدد حبات المسبحة. وذاع صيته على أنه جيمس بوند حارة الفهد. بل والحارات المجاورة، يرتدي البنطالات البيضاء الضيقة، ويعقد الحزام حول وسطه، ويعلق البلوفر في رقبته وكثيرًا ما يقف وحده على الناصية يتطلع إلى النوافذ، وهو واثق أن كل البنات يتمنين أن يتمشين معه قليلًا. فاطمة المصرية هي أشهر هؤلاء البنات، فرغم أنها تعرف أنه يمشي مع الكثيرات، لكنها مشدوهة به. لم أصدق عيني وأنا أراها ترتدي ملابس "الألفرنكة" وتخرج من باب منزلها.

تطلعت، يومها، ناحية اليمين واليسار. ثم سارت ناحية الشارع الواسع. بعد لحظات كان نبيل قد اختفى تمامًا من مكانه المعهود عند الناصية. قال أحمد عبد العظيم بعد يومين، أن صديقنا الأكبر نجح في طرد آخر ملاءة لف في حارة الفهد. وأنه لم يقبل أن يمشي مع فاطمة المصرية وهي ترتدي الملاءة. انتظرنا أن يحكي لنا نبيل عن علاقته بها. لكنه تكتم الخبر في سرية شديدة وكأن شيئًا لم يكن. ازداد خروج فاطمة من منزلها من

أجل شراء ملابس جديدة من ميدان المنشية. وقيل أنها لن تقترب أبدًا من سوق باب سدرة. سمعت أن نبيل هو الذي يختار لها ملابسها الجديدة واستطاع أن يجعل منها أكثر بنات حارتنا أناقة.

لمحتها يومًا، من نافذتنا، تضع أحمر شفاه على شفتيها، وتتحسس شعرها قبل أن تخرج لملاقاة نبيل. ثم راجعت مكياجها أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط، وخرجت. انتظرت خروجها من باب منزلها فلم يحدث. نظرت فجأة إلى غرفتها الضيقة فرأيتها تخلع ردائها البني. بدت ساحرة بكتفيها العاريين. لم تنتبه إلى وجودي، تمنيت أن تطول الفترة التي تبدل فيها الفستان، لكنها سرعان ما خرجت وتركتني ملتهبًا. بعد أن انتهيت أحسست أنني خنت جميلة. وأنه لم يكن من الواجب التلصص على فتاة أخرى عداها. لكن جميلة لن تفعل مثلها قط. لن تغير ملابسها عبر نافذة نصف مغلقة. ولا ترتدي الملابس المزركشة. ولا أقبل أن أراها على هذا الوضع مهما كانت الظروف..

سألت نبيل، وهو يضع يده تحت إبطي:

– هل علاقتك بفاطمة المصرية رومانسية؟

رد بارتباك:

- ابداً.. أنا لم أمش مع فاطمة بعد..
- رآك بعضهم معها.

- كاذبون..

- إنهم يتخذون حبها لك نموذجًا..

- كيف؟

- غيرت الكثير من سلوكها، جاءت إلى الحارة منذ عام بملابسها الريفية واليوم هي "الافرنكة".

- ربما هناك سبب آخر..

- عيناها جميلتان مثل عيني شيرلي آن فيلد..

- لم أنظر إليهما كثيرًا..

- أنا أيضًا. أحب فتاة لها نفس العينين الجميلتين.

- من.. أنت.. تحب..؟

- أجل.

- وفتاة كفاطمة.. وشيرلي آن فيلد.

- وما المانع..؟

- وهي.. هل تحبك؟

- كثيرًا..

- كيف تصرف عليها؟..

- لم أخرج معها بعد..

- هذا ليس حبًّا..

- لا أفهم..

- الحب اتصال..

- مثلما تفعل مع فاطمة..؟

- مع فاطمة أو غيرها.. المهم أن تلتقيا..

لم يشأ أن يسألني عن الفتاة التي لم ألقها بعد. فهو يعاملني كطفل صغير لا يجيد شيئًا سوى استعمال الصابونة في الحمام، واستماع نصائح الدقة عن البنات، وأن أقلده في حب نجوم السينما، خاصة كيرك دوجلاس، وبول براينر. شاهد كل أفلامه التي عرضت في الإسكندرية. راح وراءها من سينما إلى أخرى، وتتبعها من "مترو" إلى "النيل" ومن "الهمبرا" إلى "بارك" و"بلازا" و"الدورادو": "العظماء السبعة"، "الأخوة كارمازوف"، تراس بوليا"، وأخيرًا "ملوك الشمس"، البطل الأصلع الجامد الوجه، الباحث عن الحق والخير، القوي الذي يمكنه أن يصرع خصومه وينتصر على أعدائه. كلماته قليلة، مهاب الجانب. لا أعرف لماذا أصبت بخيبة ألم عندما شاهدته منذ أسابيع يقوم بدور أحد أبناء رجل يدعى كارمازوف يُتهم في جريمة، ويهرب من الحبس، ولا يتمكن من ضرب أحد ممن حوله.

امتلأ الفيلم بالحوار فأحسسنا بالملل. قال الدقة إن الفيلم مأخوذ عن رواية عالمية مشهورة، ولم أستطع أن أفهم أيضًا الكثير مما قاله حولها. أبهرنا بول براينر اليوم، من جديد، وهو ينتفض فوق الأرض بعد أن قبضوا عليه. وبهرنا وهو يحطم رءوس الأعداء. خاصة الرجل الذي يريد القضاء على بلعم شعوب المايا.

لا يمكن للدقة أن يعيد تمثيل الفيلم في الحارة؛ فالأحداث متشابكة والشخصيات متعددة. وليست لدينا بنات جميلات يجدن أداء دور الفتاة التي خلبت النسر الأسود. نجح الدقة في نقل حكاية "العظماء السبعة" إلى حارة الفهد يومًا. ولعبنا الفيلم أربعة أيام متوالية في شكل جديد من "عسكر وحرامية".

وجدت نفسي، يومها، أجسد دورًا صغيرًا ثم أخرج من اللعبة عقب إصابتي برصاصة. اعترضت على الدور وأخبرتهم أنني أحب بول براينر وكيرك دوجلاس وإيدي مورفي ورشدي أباظة.

ضحك عبد العظيم ساخرًا مني، فهو يعرف أنني لم أمتلك قط مواهب أي منهم.

توقفت الشلة عند ميدان محطة مصر، التففنا في دائرة نتساءل عن المكان الذي نذهب إليه. اقترح الدقة أن نذهب إلى سينما بارك لمشاهدة فيلم "الخطايا". اعترض أحمد عبد العظيم وقال:

– لماذا لا نذهب إلى الشاطئ؟

علق نبيل:

- البحر مزدحم في العيد.

فسألت: والنزهة؟

رد الدقة: النزهة غدًا.

أكد عبد العظيم على اقتراحه ، وقال: الأنفوشي يا رجال. ها هو الترام..

أشرت إلى عربات الكارو الواقفة في الميدان. وقلت:

- المرسيدس ينتظرنا.

انحشرنا في الترام المتجه إلى الأنفوشي، وقد ازدحم، كعادته في العيد، بالأطفال والصبية، وكلما توقف الترام في محطة أحسست أن عظامي تهرس بين لحوم وعظام الآخرين. إنها أكثر ازدحامًا من السينما التي لفظتنا منذ قليل. وجدت نفسي أختنق وفكرت في النزول من الترام، الدقة لكزني أن أندس بجوار الباب، وقف بجانبي يحمي عظامنا من الكسر أنا وفتحي عبد الحليم، وسرعان ما فهمت أنه يحمينا أيضًا من المحصل الذي استطاع أن ينفذ بين أطفال العيد بأعجوبة. قال الدقة ببساطة متناهية:

- هناك.. قطع ستة..

ولم "يلتقط" المحصل الطعم.. فنادى الدقة على أحمد عبد العظيم الذي قال من مكانه في آخر العربة:

– أيوة.. خمسة.

قال المحصل: يقول خمسة.. وأنتم ستة..

أخرج الدقة قرشًا وأعطاه للمحصل دون أن يتكلم.

لفظنا الترام عند الأنفوشي. تطلعت إلى بدلتي البنية التي تكرمشت وشعرت بالحسرة، سمعت أحمد عبد العظيم يسأل:

– أين التذاكر؟

رد الدقة: قطعت تذكرة واحدة..

تعالت القهقهات، وعبرنا الشارع إلى الشاطىء. قال نوبي وهو يفتح لنا شمسية مثقوبة القماش، مكسورة الخيرزان:

– ربع جنيه.

علق نبيل: غالية جدًا.

رد الرجل:

– اليوم عيد، وكل سنة وأنتم طيبون. هذه آخر شمسية.

قبل أن نتردد كانت الشمسية من نصيب مجموعة أخرى من الصبية والشباب. قال الرجل:

- هناك شمسية جديدة.. بنصف جنيه..

تحسست القروش الباقية في جيبي، كي أطمئن أنني أستطيع ركوب الترام إلى كرموز.

اقترح عبد العظيم أن نضع ملابسنا في صناديق حفظ الملابس.

فقال الرجل:

- الواحد.. خمسة قروش.. والمايوه أيضًا بخمسة قروش..

تحسست قروشي مرة أخرى وأدركت أنني لن أستطيع تكملة بقية أيام العيد. حاول نبيل أن يساومه. فرفع الرجل سعره. قال الدقة:

– هيا بنا إلى رأس التين.. فهناك أفضل.

جلست بجوار السور الحجري القصير، فوق الرمال، أنظر إليهم يستحمون.. بدا نبيل أنيقًا بلباس البحر الذي يرتديه دائمًا تحسبًا للمناسبات؛ ففي أي مكان يمكنه أن يستعمله كشورت ويلعب كرة. أما الدقة وعبد العظيم فقد اختارا الاستحمام بسراويلهم القطنية التي سرعان ما كشفت عن عوراتهم. وراح فتحي عبد الحليم وأخوه يشتريان لنا بعض الطعام بينما وضعت قميص الدقة فوق رأسي. رحت أتطلع إلى المكان من

حولي. إنه هنا أقل ازدحامًا من الأنفوشي. والشمسيات هنا قليلة. جاءت بعض الأسر ونصبت خيمًا صغيرة من الملاءات اللف المربوطة في أوتاد خشبية احتموا بداخلها، حتى لا يدفعوا إيجارًا للشمسية فضلًا عن أنها معفاة من الضرائب. اتفقنا أن تنقسم المجموعة إلى فريقين يترل كل منهما إلى المياه للاستحمام بالتناوب. أحمد عبد العظيم "يبلبط" في المياه دون أن يجرؤ على الابتعاد عن موقع قدمه. أما نبيل فقد غاص بعيدًا وسبح مع ابن خالته، الدقة، ولم أستطع أن أميز مكانهما.

عندما عاد الأخوان عبد الحليم يحملان الطعام. قال فتحي:

– هل تعرف من معنا هنا على الشاطيء؟

تساءلت بفضول: من؟

رد: إبراهيم الحنش.. وخطيبته.

- خطيبته..؟

- أجل. خطب فتاة جميلة بعد أن طلق امرأته السابقة.

قال محمد:

– بهذه الفتاة سيصبح ملكًا لكرموز وشارع التميمي.

وجدت لساني يمصمص لا إراديًا وأردد:

- خسارة لطيفة. وقفت كثيرًا إلى جانبه.

علق فتحي عبد الحليم: أنه في حاجة إلى وريث العرش.. سمعت أنه سيبيع الأرجوحات. سيفتح محلًا للدراجات..

قلت: رأيته ينظفه منذ أسبوع.

قال محمد:

- أغلب الظن أنه سيأتي رأس التين. فقد رأيناهما ينزلان من عربة حنطور.

خلعا ملابسهما. وقال أحدهما:

- سوف ننزل المياه.. ونناديهم ليأكلوا.

لم أمنع نفسي من التهام قطعة فلافل عندما قرصني الجوع. ولم أمنع نفسي من التقاط زيتونة وأنا أحس بالملل. كما لم أمنع عيني من الحملقة في المرأة التي ارتدت جلبابًا واسعًا ونزلت للاستحمام مع أطفالها. التصق الجلباب بجسدها فانكشف نهدها وبدت عارية تمامًا. لعلها تقصد إثارتي، فهي تخرج من المياه ثم تعود إليها أكثر من مرة. عندما تستدير للغوص في البحر أرى مؤخرتها وقد برز ردفاها كأنهما قمتا الهمالايا وبينهما أخدود عظيم. تضحك مع أبنائها وتحمل أحدهما فوق كتفها لتغسل وجهه بمياه البحر، ثم تعود به إلى خيمتها الصغيرة. لا أعرف هل انتبه إليها الآخرون أم لا؟ فهناك نساء كثيرات في المياه، لعلهن كشفن صدورهن بنفس

الطريقة. لكن هذه أجملهن. خرج فتحي عبد الحليم من المياه وقد بدا عليه الاشمئزاز وقال:

- يا له من أمر مقرف..

قلت:

- يا رجل.. حرام عليك. هل هناك أجمل من هذا؟

أشار إلى يده، وقال:

- أتصدق أن المياه مليئة بهذا.

رأيت آثار بعض البراز في يده. شعرت بالقرف. سألته:

- من أين هذا؟

رد: كل واحدة من هؤلاء ترغب في تخفيف وزنها تفعل ذلك في المياه. أو تدع أطفالها يفعلون..

راح يدعك يده في الرمال لإزالة البراز، وأنا أسأله عن الآخرين فقال:

- يبدو أن الدقة ونبيل ذهبا إلى الأنفوشي.. أما محمد فقد راح يفتش عن مكان إبراهيم الحنش.

- وأحمد عبد العظيم.

- يقف، كما ترى، بجوار النساء، ليتأمل أثداءهن.

- شيء غريب. هذه المرأة تبدو كأنها بلا ملابس..

- كل النساء في المياه مثلها..

لم أتركه يكمل. وجدت نفسي أخلع ملابسي وأجري إلى المياه.. استقبلني عبد العظيم قائلًا:

- أيوه يا فالح.. ما الذي أتى بك؟

قلت وأنا أبلل جسدي:

- أريد أن أملي ناظري..

- افعل كما تريد.. فقد اكتفينا..

- هل هناك شخص يكتفي من الفرجة على أثداء النساء.

- هل هذه أثداء.. إنها أقرب إلى جلود الحلاقين..

ومع هذا لم يخرج، إلا عندما عاد نبيل والدقة من الأنفوشي.

سألت ونحن نفترش الطعام فوق ورق الجرائد:

- ما أخبار إبراهيم الحنش؟

قال الدقة وهو يحرك يديه في الهواء:

- يا إلهي.. ألهبت الشاطىء كله..

- من؟

- خطيبته.. بمجرد أن نزلت إلى المياه انقلب البحر كله.. لكن على من.. فإبراهيم الحنش معروف هنا في بحري أكثر من كرموز.

قلت: أريد أن أراها..

قال نبيل: عليك أن تبقى إلى جوار الملابس إلى أن نستكمل دورتنا.

قلت محتجًا: لا.. أنا لم أستحم بعد.. سوف أذهب معكم إلى الأنفوشي..

سأل عبد العظيم: والملابس..؟

أجبت: فلنأخذها معنا.. أو لتبق هنا تتأمل نساءك ذوات الصدور المدلاة.

ردد الدقة بأسلوبه المعهود في السخرية:

– رؤية خطيبة الحنش بكامل ملابسها تعادل رؤية عشرات العاريات من نساء رأس التين.

وافق فتحي عبد الحليم أن يظل إلى جوار الملابس بعد إصابته بطلقة البراز، سرنا نحن الخمسة بمحاذاة المياه إلى أن وصلنا إلى الأنفوشي عند المكان الذي أشار إليه الدقة، ووجدنا أنفسنا نبلل أجسامنا مرة أخرى، وتمكنت من رؤية خطيبة الحنش، وتأكدت أنها أكثر جمالًا مما تصورت. ترقد بلحمها الأبيض ولباس البحر الأسود فوق زورق مسطح وراح يدفعها برقة. بدا شخصًا مختلفًا تمامًا عن الحنش الذي نعرفه، رقيقًا وحالمًا.. تنعكس أشعة شمس العصر فوقها فتعكس بريقًا من الذهب، وقد تهدل شعرها فغاص نصفه في المياه. تبدو كملكة متوجة أشبه بالملكات اللواتي قرأنا عنهن في كتاب التاريخ. كأنها بلقيس التي حدثنا عنها الأستاذ فكري.

يبدو الحنش أشبه بسليمان الذي نال أحلى النساء. سحرته، فقص شعره مثل شمشون، لكنه لم يفقد قوته. فهو يجيد السباحة. بدا حليق الذقن، كثيف الشعر في منطقة الصدر. لم أر صدره قط أثناء مشاجراته، فهو لم يقلد أخاه لؤلؤ يومًا، الذي اعتاد أن يخلع فانلته عندما يدب الشجار بين الأخوين. سوف ينتهي زمن المعارك الكبرى في حارة التميما على صدر هذه الحسناء، فهي لا يمكن أن ترضى لزوجها أن يتعارك بعد هذا المشهد الحالم.

وجدت نفسي أقترب من الزورق المسطح وأنا أحملق بشدة.. ليس في الفتاة هذه المرة، بل في الرجل الذي بدا كأنه أطاح خلفه بسنوات عديدة. وإن لم يفقده ذلك خشونته. أحسست برغبة ملحة أن أخبره أنني أقيم في حارة الفهد، وأنني أعرفه، لكنه بدا غارقًا في عالم آخر.. سرعان ما تذكرت النسر الأسود وهو يترقب حبيبته ذات العينين الساحرتين فحولته

إلى مخلوق مستأنس. وجدتنا أفكر في جميلة وأتساءل: "هل ستوافق أن تركب زورقًا مسطحًا مثل هذا حين أخطبها". سرعان ما ألقيت الفكرة من رأسي. فلا يمكن أن أدفع جنيهين من أجل تأجير هذه القطعة من الخشب، وكذلك لن أستطيع أن أتحمل عيون الناس وهم يتأملونها، كما لن أتمكن من الدفاع عنها إذا عاكسني أحد البصاصين، لأنني ببساطة لا أمتلك مواصفات إبراهيم الحنش.

السنة الرابعة

1368

قال حسن إن هذا الرقم ناجح إن شاء الله. ثم أضاف:

– ولكي أبرهن على ذلك. اقسمه على ثلاثة..

وقسمت الرقم. قال:

– الناتج صحيح.. أليس كذلك؟

هززت رأسي بالإيجاب، وبي الرغبة أن أقبله. إنه يهتم بأموري حتى في هذا اليوم العظيم بالنسبة له. صعد إلى أمي وهمس في أذنها ببعض الكلمات. ثم نزل مرة أخرى إلى شقته كي يجلس إلى جوار مولوده الجديد. أمي تملأ الآفاق فرحة، ولا تكف عن الحركة يمينًا ويسارًا. رزق كبيرها بابن. وها هي ذي أصبحت جدة مرة أخرى تنتشي من الفرحة التي تشع من عيني محسن وتقبله، ثم تربت على كتفه وتردد:

– يتربى في عزك. ربنا يحفظه لك..

ثم تسأله: هل تريد نقودًا؟

صعد إليها أكثر من مرة يطلب الاستشارة. وفي إحدى المرات طلب منها النزول إلى شقته كي ترى ولي العهد الجديد. عندما رآني عائدًا من المدرسة سأل بلهفة:

- ماذا فعلت؟

- استلمت رقم الجلوس.. وعرفت جدول الامتحان.

- حسن. ناجح إن شاء الله.

ثم طلب مني أن أغلق باب غرفتي كي أذاكر..

سمعتهم يتحدثون عن أشياء غريبة لم تدخل المنزل منذ سنوات طويلة. انطلقت زغرودة مكتومة من فم أمل التي لا تجيد تنغيم أحبالها الصوتية. تشاور أخي مع أمه حول شراء الموغات وتنظيف فرختين بلدي اشتراهما من أجل زوجته. كلما خرجت أعرض خدماتي، لكزني قائلًا:

– أدخل أنت.. وذاكر..

لم أجد في الكتب ما يثير الشهية. قرأتها عشرات المرات. وحفظت ما بها، لم أعد أرغب في مطالعتها مرة أخرى. حتى نماذج الامتحانات لم أحس برغبة في حلها. فكرت أن أذهب إلى السينما. أو أن أخرج إلى الحارة مرة أخرى. لن أجد شخصًا يقبل أن يذهب إلى السينما معي. فالجميع مشغول بالامتحانات التي ستبدأ خلال أيام. وخاصة أحمد عبد الحليم وأخوه. اندهش أحمد عندما عرف أنني شاهدت إيرما الغانية في

سينما الهمبرا، لكنه لم يبد ندمًا لأن الفيلم فاته. فالاستذكار لديه أهم. كما أنه لا يشغل نفسه بمسائل الحب التي تملأ عليّ أوقاتي. ولا يجرؤ أن يتعرض لمدرس ويعاركه مثلما حدث بيني وبين سعيد إسماعيل. أخبرني أنه لم يكن في فناء المدرسة وقت ما حدث بيني وبين سعيد إسماعيل. أخبرني أنه لم يكن في فناء المدرسة حين حدثت المشاجرة. لكن أحمد حمودة أكد لي أنه ذهب إليه في البوفيه وأخبره أن ابن عمه يتشاجر مع المدرس سعيد إسماعيل، الذي وقف يطيح في التلاميذ بعصاه الغليظة، فيهربون من أمامه خشية أن تمسهم فتوجعهم. احتشد الجميع في الفناء يهتفون "روحونا.. روحونا"، ارتفعت الأصوات تخترق الآذان.. لم يوافقوا على العودة إلى الفصول؛ فاليوم عيد الأم، وكل المدارس القريبة في شبه أجازة. ومن نوافذ المدرسة الثانوية المجاورة راح الطلاب يحثون تلاميذ مدرستنا أن نطالب بفتح أبواب المدرسة. صاح أحد طلاب المدرسة الثانوية:

– فتحوا لنا الباب لأننا كبار.. أما أنتم فمازلتم في الإعدادي.

ألهبت هذه الكلمات بعضنا فتعالت هتافاتهم الحماسية. عجز سعيد إسماعيل بعصاه أن يتصدى للهاتفين. بدأ يطيح فيمن حوله. بدا أشبه بأمي وهي تجري وراء الدواجن فوق السطح كي تمسك بواحدة قبل أن تذبحها. رأيته يدخل الفناء الصغير الذي جلست في ركن منه. صاح فينا أن نغادر المكان إلى الفصول. ثم هش علينا. وجاءتني ضربة شديدة في ساقي. ثم أسرع وراء تلميذ وأمسكه. إنه في الصف الأول. سرعان ما أمر بـــ "عبطه" وانهال على مؤخرته بقسوة ونحن نرقبهما.. رأيته يعود إلى الفناء

الصغير مرة أخرى وطلب منا أن نغادره. ثم راح يهش علينا من جديد. صاح وهو يقف أعلى السلم:

– هيا إلى فصلك.

لا أعرف ما الذين دفعني أن أهز رأسي وأنا أقول بكلمات لم تخرج من حنجرتي:

– لا.. لن أخرج!

ومع هذا سمع ما قلته. اقترب مني وهو يسأل:

– ماذا تقول؟

قلت بثبات: لن أذهب.. فأنا لم أفعل شيئًا.

وأشهرفي وجهي عصاه البالغة الغلظة. اقترب مني ورفع العصا. ثم نزل بها في نفس المكان الذي طالته قبل قليل.. اشتعلت ساقي بالنيران لكنني لم أصرخ. كيف لي أن أحب ذات الرداء الأحمر وأصرخ أو أبكي. كيف لي أن أفعل ذلك وتحت أنفي شارب خفيف. تحاملت وأنا أتلقى الضربة الثانية. ثم حاولت أن أمنعه أن يضربني. لم يصدق أن يدي استطاعت أن تخطف منه صولجانه الضخم، قبل أن يستعيده وجدت نفسي أنحشر في كرشه برأسي وأحاول أن أمنعه من صفعي على رأسي ووجهي. انزلقت وأنا أمسك بالعصا التي انزلقت معي إلى وركيه وأمسكته بها من ساقيه. أحسست به يكاد يتزلق بين يدي. ويكاد أن يتهاوى. هناك من

يشدني، وهناك من اختطف العصا. رفعت عيني إليه. يستبد الغضب بوجهه. وعلى السلالم، من الجانبين، احتشدت مدرسة رأس التين لمشاهدة هذا الحدث الغريب. أراد أن ينهال عليّ مرة أخرى بنفس العصا. فقلت صارخًا:

– إياك أن تضربني.

قال مزبدًا:

– سوف أخرب بيتك. سأريك نفسك.

وقبل أن يعاود الهجوم، أفلتت من بين يديه وهرولت إلى السلم، واندفعت إلى الممر المؤدي إلى حجرة الناظر. اكتشفت لأول مرة أن الممر مفروش بالسجاجيد، وعلى جانبيه أوان مزروعة بخضرة كثيفة. لا أعرف لماذا اندفعت إلى مكتبه رغم أن هذا يعني دخول الجحيم بعينه. رأيت الرجل الأصلع يجلس أمام مكتبه وأمامه بعض الضيوف.. لمعت عيناه عندما شاهدني. وقبل أن ينهض كنت أقف إلى جواره وأشير إلى ملابسى الممزقة. وأردد:

– هل ترى ماذا فعل الأستاذ سعيد؟..

بدا الرجل في حرج أمام ضيوفه. ربت على كتفي وسأل:

- من مشرف الفناء؟

- الأستاذ يوسف لطفي..

- اذهب إليه.. سوف أراك فيما بعد..

أحسست أنني سأدخل السعير بقدمي. فها هو الأستاذ يوسف يتمكن من فرصة يستطيع بها أن يحطم حاضري ومستقبلي، بل وماضيَّ أيضًا. لقد جئت إليه أخيرًا فريسة ممزقة، ومتهمًا بأبشع الجرائم التي يمكن لتلميذ أن يرتكبها. إنه يعرفني جيدًا، وينتظر مثل هذا اليوم. يريد أن يلتهمني حين يراني، في شارع الخديوي، أضع حقيبتي على ظهري وأمسكها بأطراف أصابعي وأتحرك فوق الرصيف أعاكس بنات المدارس اللاتي سيركبن الترام متجهات نحو الأنفوشي. أو معاكسة الموظفات المتجهات إلى أعمالهن. يبرز الغيظ من عينيه وهو يراني أقف مع محمود سالم وحسن صبيح ومحمد نور الدين متأهبين للذهاب إلى سينما الهمبرا في حفلتها الصباحية. يعرف أن هذا يحدث صباح كل اثنين. لكنه لا يستطيع أن يفعل لنا شيئًا. فهو مدرس أول اللغة الإنجليزية بالمدرسة. ونحن، والحمد لله، لا ندرس هذه اللغة.. وبيننا وبينها وديان وجبال شاهقة، كما أننا في الإعدادية وعما قريب سوف ندخل المدرسة الثانوية.

ها هو يوسف لطفي يجد فرصته أخيرًا، وهأنذا أذهب إليه بنفسي. أعرف أنه لن يسألني عن المشاجرة التي دارت في الفناء الصغير قبل أن ينظر إلي بشماتة ويحدثني عن الفتاة التي كنت أشاكسها قبل أيام، وعن سينما الهمبرا وبلازا اللتين تزدحمان بنا.. وعن.. وعن.. عليّ إذن أن أذهب وأبحث عنه بهذه الملابس الممزقة. سألت الرجل الواقف على باب غرفة الناظر عن مكان الأستاذ يوسف لطفي؛ فأجاب:

– في غرفة التربية الرياضية.

وسرت متثاقلًا إليها. وجدت نفسي في الفناء مرة أخرى.

أحسست أن المدرسة انقلبت ولم أقرأ ماذا في العيون. كنت مهمومًا بأشياء أخرى. عندما رآني صاح مهددًا:

– أهلاً.. أهو أنت؟

وتأكدت ظنوني، وترحمت على نفسي. لقد عرفني، وهأنذا جئت إليه، لكنه لم ينطق بكلمة أخرى. فقط وضع يده على كتفي واشار أن أبقى في مكان إلى جوار الحائط. ثم صاح في عم عبده أن يدق الجرس معلنًا نهاية الفسحة الكبيرة. وبينما الجرس يقرع أحسست أن قلبي ينبض لآخر مرة في حياته. ورأيت الأستاذ فيصل، رفعت يدي إليه فأقبل نحوي وسألني:

- ماذا بك؟

أجبت على وجه السرعة: سعيد إسماعيل..

هتف: أهو أنت؟

هززت رأسي بالإيجاب. يمسك عصا غليظة مشابهة. لا أعرف لماذا استنجدت به فهو أحد المعروفين بقسوتهم مع التلاميذ. سألني:

- في أي فصل؟

- ثالثة رابع..

- أنت تسكن في حارة الفهد. أليس كذلك؟

- أجل.. رأيتك مرات تمر من هناك..

- أنا أجلس على مقهى أبو دومة..

- أعرف.. رأيتك تجلس كثيرًا مع محمد عبده و....

- أجل.. إنه يمتلك منزلًا في حارتكم.. أخبرني.. هل ضربته؟

- لا.. هو الذي ضربني..

- يا عبيط.. لا يوجد رجل يقول إنه ضربني.. لقد ضربته.. يستاهل..

انتعشت فجأة، ثم ربت على كتفي وقال:

- لا تخف.

حين دخل حسن غرفتي الصغيرة سألني:

- أخبرتني أمك أنهم يريدونني غدًا في المدرسة.. خيرًا؟

قلت وأنا أتحسس وركي:

- تشاجرت مع مدرس.

أعرف أن الأمر حساس؛ فأخي كثيرًا ما يشكو من التلاميذ المشاكسين في المدرسة التي يعمل بها.. وها هو ذا يتعرض لنفس الأمر من مفهوم آخر.. قال:

- ماذا فعلت؟

- لا شيء.. كدت أن أوقعه على الأرض..

- يا حلاوة. مرفوت إن شاء الله..

- مزق لى ملابسي..

- ولو..

تأوهت فجأة وهو يلمس وركي. سألني جزعًا:

- ماذا بك؟

أجبت: الضربة تؤلمني.

وهو يتحسس وركي سأل: هل ضربك؟

- أجل..

- ولماذا لم تقل ذلك؟

- كانت الضربة شديدة.. العصا أشبه بقطعة حديد..

جعلني أخلع بنطال البيجامة.. وراح يتأمل وركي وقد علته حمرة وزرقة غريبتين. انتفض جزعًا وهتف:

- يا له من متوحش..

- ومزق لى ملابسي..

- الملابس لا تهم.. كم مرة ضربك؟

- ثلاث.. هذا ليس مدرس. إنه متوحش..

وقف حسن أمام باب مكتب مأمور قسم كرموز، وأسلم مظروفًا أبيض للشرطي الواقف على الباب، بعد قليل خرج ليأذن لنا بالدخول. حييت الرجل ذا البدلة البيضاء. ولم أصدق أنه يطلب منا الجلوس. اتكأت على المقعد الجلدي. سمعته يقول لأخي:

– أهلاً يا أستاذ..

ثم نظر إلى الورقة التي أمامه وأكمل: حسن.. أنا أمام حالة تستحق الاهتمام.. مدرس يشكو زميل مهنة لأنه ضرب أخاه..

قال أخي: ليس هذا ضربًا عاديًا يا سعادة البك..

عندما كشف عن وركي أمام المأمور مط شفتيه ثم قال:

– أنا تحت أمرك. الحالة ليست بسيطة. ما هي الإجراءات التي تود أن نتخذها لك.

قبل أن يدق جرس الصباح، احتشدت مدرسة رأس التين بأكملها حولي. جاء بعضهم لمشاهدة التلميذ الذي "ضرب" مدرسًا وراح بعضهم الآخر يثني على مهارته:

"كدت أن توقعه أرضًا".

"أنت مخطيء. لماذا لم تطرحه؟".

"هل رفتوك فعلًا".

"ماذا فعلت مع ولي أمرك؟".

"الناظر مستاء من كل هذا".

وجدت نفسي أعيد قص ما حدث. ولم أقل شيئًا عما دار في قسم الشرطة.. ولم أخبر أحدًا بالمخابرة التي تمت بين المأمور والناظر في مكتبه. وعندما دخلت غرفة الناظر مع أخي حسن أشار الرجل الأصلع بأدب أن أخرج. لم أقف طويلًا خارج الغرفة. خرج حسن وربت على كتفي وهو يردد:

- سوف أعزله من وظيفته.

المدرسة مقلوبة رأسًا على عقب. وتحوم التساؤلات حول ما يمكن أن يحدث. أخبرني أخي أن الناظر طلب منه أن أنتظم في الدراسة كأن شيئًا لم يكن. عندما دق جرس المدرسة راح تلميذ يناديني من بعيد:

- سعيد إسماعيل.. باركك الله..

سرعان ما انتظمت الصفوف. وقف إبراهيم خليل ينظم صفوف فصله كالعادة. بينما وقفت إلى جوار صبيح وقد علت الدقات بين جنبي وأنا أرى الأستاذ سعيد يأتي من آخر الفناء في خطوات واسعة، ويدفع بكرشه أمامه، ويضع حقيبته الجلدية تحت إبطه، ويتجه نحو صفوف فصلنا. كلما اقتربت خطواته انهار قلبي، بينما مالت العيون كلها نحوه وقد علتها التساؤلات حول ما يمكن أن يحدث، وخاصة أن حضرة الناظر موجود اليوم في طابور الصباح. شدني من كتفي وقال بعجرفته المعهودة:

– تعال. ما الذي جاء بك هنا؟

ثم زح بي خارج الصف. لم يستأذن مدرس الحصة الأولى في فصلي. حملت حقيبتي ومشيت بتخاذل ناحية الناظر، وقد ران السكون شامخًا في الفناء إلا من صدى وقع خطواتي فوق الأرض، وأنفاس المدرس اللاهثة. وقف حضرة الناظر بجوار صارية العلم يراجع بعض الأوراق في يده. عندما اقتربت منه صاح بصوت عال جلجل المكان:

- التلميذ يرجع مكانه.

أحس أن صوته لم يرتفع بما فيه الكفاية نحو أعالي السماء.. فكرر:

- التلميذ يرجع فصله..

وقبل أن أعوذ إلى مكاني في الطابور، كان الأستاذ نصيف، مدرس الألعاب قد أعطى الاشارة لترديد نشيد الصباح:

ناصر كلنا بنحبك، ناصر.. وح نفضل جنبك، ناصر. ونعيش ونقولك..

يا حبيب الكل يا ناصر، ناصر.. كلنا بنحبك.. ناصر. وح نفضل جنبك..

ناصر ونعيش ونقولك..

أحسست أن رمال الفناء تنشد معنا، ونوافذ الفصول تتطلع إلينا، وجرس المدرسة يناغم الموسيقى مع أوراق الشجرة الوحيدة المزروعة إلى جوار المقصف. رأيت الأستاذ يوسف واصف، مدرس التاريخ، يقف يشد إحدى شعيرات شاربه الأصفر، وتصورته يضعني في مصاف أبطال التحرر الوطني الذي يحدثنا عنهم في دروس التاريخ التي يجبرنا أن نحفظها عن ظهر قلب. حتى قبل أن يشرحها لنا. أشار الأستاذ نصيب أن تتحرك الصفوف إلى فصولها. وجدت نفسي أمشي إلى جوار الناظر، مع فصلي، وتحاشيت أن أتطلع إليه. إنه لا يزال يقرأ وريقاته كأن شيئاً لم يحدث. على السلم ناداني أحدهم، مرة أخرى، بصوت خفيض:

- أيوه يا سعيد.. ربنا يحميك.

عندما جلست فوق مقعدي لم أصدق أنني أعود ثانية إليه. وقف المسيو أحمد سلامة أمامنا وأطلق تحية الصباح "بنجور" وأراد أن يبدأ في شرح الدرس على الفور. لكن حسني جابر رفع يده، وعندما أذن له المسيو بالكلام قال:

- أحب أن أسأل سيادتك سؤالًا بعيدًا عن الدرس..

قال المسيو بعجرفة: لا يوجد هنا غير الدرس..

- لكن..

- أنتم تعرفون أنني منتدب.. ولا يهمني ماذا يدور هنا.. ثلاث حصص هنا.. ثم أعود إلى مدرستي الأصلية.

استأذن إبراهيم خليل في الكلام وقال: لكن من يسمعنا؟

رد المسيو: رائد الفصل.

- إنه مريض..

- وأنا لا أستطيع أن أحل مشاكل..

قال حسني: نحن لا نريد حل المشاكل، فقد حلها حضرة الناظر.

قاطعه مرة أخرى: عند أى "براجراف" وصلنا في الحصة الماضية.

بدأ بعضنا يفتح كتاب اللغة الفرنسية. وجدت نفسي أنظر إلى الحناوي، كأنني أناصره على ما فعله قبل شهر ونصف. همست لصبيح قائلًا:

– رحم الله المسيو إسماعيل خالد..

صاح المسيو بعجرفة:

- وماذا بعد.. لا نريد همسًا..

بدأت أنظر إلى الكتاب بعينين زائغتين. لم أفكر في سعيد إسماعيل، ولا فيما حدث في طابور الصباح، لكنني أحسست بالندم لنقل المسيو إسماعيل إلى مدرسة أخرى مع بداية العام الحالي. لقد ضربنا ونحن في الصف الأول، وشجعنا في الصف الثاني، وسعى للنقل من مدرستنا ونحن في الصف الثالث. أخبرني قبل أن تبدأ أجازة السنة الماضية أن عليّ، إن وددت أن أتقدم في اللغة الفرنسية، بحفظ الجديد من الكلمات يوميًا.. في أول يوم دراسي لنا هذا العام دخل علينا "مسيو" جديد، أكثر أناقة وأقل بساطة. حيانا باستعلاء وقال:

- نظرًا لأنه لا يوجد في المدرسة كلها سوى فصلين "فرنساوي" فأنا منتدب..

بدأ يعلمنا لغة فرنسية أخرى غير اللغة التي تعلمناها من المسيو إسماعيل. لغة أشبه بحجارة خالية من الحياة. لم أجرؤ يومًا أن أسأله كيف يمكن أن أكتب رسالة إلى الفتاة التي أحبها ولا كيف أغازل فتاة في الطريق

بكلمتين مختلفتين. ورغم حماسه الشديد لتوصيلنا بكتاب "اللغة"، إلا أن إبراهيم خليل هو الوحيد الذي ظل يتفاعل معه. وهو الذي وقف ضد الحناوي عندما قرر أن يضايقه، فطلب من صبيين في حارته في شارع الرحمة أن يقفا أسفل النافذة ويشتما المواطن أحمد سلامة بصوت عال. وبينما تتنافس الشتائم في قذعها على آذاننا جميعًا، بدا "المسيو" متماسكًا كأن الأمر لا يعنيه بالمرة وهو يستكمل تفسير المعاني الصعبة في درس "مقصف المدرسة" شعرت، آنذاك، أن هذين الأفاقين يسبانني أنا، فمهما كان "المسيو" متعجرفًا إلا أنه أولًا وأخيرًا "مدرسنا"، ها هو كعادته ينفعل أكثر منا حين يعلن لإبراهيم وحسني أن يفتح الجميع كتاب اللغة. تنتهي حصته ويذهب كما جاء. عندما دخل الأستاذ عبد ربه أغلق الباب ردت أرواحنا إلى أماكنها وكأننا نباتات جافة ارتوت بقدومه.

دلف من الباب على حين غفلة. وقبل أن يدق جرس بدء الحصة. وقف أمام السبورة.

سرعان ما ذاع الخبر بين تلاميذ "ثالثة رابع" الذين كانوا يحتسون الشاي عند العم إبراهيم. فتركوا أكوابهم الساخنة ودخلوا يطلقون عليه تحية الصباح مرددين:

"طلع البدر علينا"..

"المدرسة نورت".

"ثالثة رابع اليوم في عيد"

"عود الابن البار".

وقف الأستاذ عبد ربه يتلقى عشرات من عبارات الترحيب بابتسامته الخفيفة المليئة بالمودة.. انتشيت وأنا بمقعدي.. وأردت أن أقص عليه حكايتي مع سعيد إسماعيل لكنه بمجرد أن تكلم حتى قال:

– مهما حدث، فأنا لا أوافق أن تقوم مشاجرة بين تلميذ وأستاذه.. للمدرس حق الطاعة.

ووقع قلبي في يدي. استطرد:

- من حقنا أن ندافع عن أنفسنا. لكن لكل أسلوبه. وليس بالعنف.

رفعت يدي إليه. فأشار لي أن أخفضها. وقال كلامًا كثيرًا. أردت أن أتحدث أكثر من مرة، فلم أتمكن. قال في آخر كلامه:

– هذا ليس رأيي وحدي، بل رأي المدرسين كلهم. ومن أجل هذا الحادث قطعت أجازتي المرضية.

هنا طرق الباب.. وعندما فتح أطل منه رأس الأستاذ فيصل الذي نظر إلى زميله وحيَّاه. ثم أخذ يجول بعينيه في الفصل حتى رآني. فأشار بيده للأستاذ عبد ربه، وقال:

- عن إذنك. سنأخذه معنا قليلًا.

ارتعبت من جديد، وأحسست أن النهاية كارثة هذه المرة. فإذا كان عبد ربه قد ردد كل هذا الكلام. فلعل فيصل قد علق "فلكة" في وسط الفناء الكبير تمهيدًا لمدي أثناء الفسحة. وهاهم يأخذونني من الدار للنار. قمت من مكاني ولم أطمئن لابتسامة الأستاذ فيصل وأنا أخرج معه. شعرت أنه يخفي خلفها ضربات أشد، أو توقيع بالفصل النهائي. لكن الناظر حسم الأمر في طابور الصباح. أدهشني أنه راح يربت على كتفي وقال وهو يتحرك بخطاه المتسعة:

– اسمع. سوف ننتهي تمامًا من هذه المشكلة.. هل فهمت؟

لم أفهم، لكنني شعرت بالارتياح. قال:

– عيب على الصغار أن يتعاملوا مع الكبار مثلما فعلت، وأنا لم أقف بجانبك إلا لأنك من حارة الفهد.. هل فهمت؟

لم أفهم جيدًا. لكنني تركته يكمل:

– الآن، سوف تذهب إلى الأستاذ سعيد وتعتذر له..

قلت: لكن...

قاطعني: ليست هناك مشكلة بالمرة.. ستصافحه، وينتهي الأمر.

وددت أن أخبره أن أخي طلب مني ألا أعتذر أبدًا لسعيد إسماعيل. وأنه هو الذي يجب أن يفعل ذلك. لكنني شعرت براحة وأنا أسير إلى

جواره يربت على كتفي كأننا أصدقاء. بدا أقرب إلى محمود سالم صديقي البدين الذي يتصرف معي كابن له رغم أنه الآن في الصف الثاني. قال:

– سوف تنال الشهادة الإعدادية بعد أشهر.. وسنصبح أصدقاء. لذا يجب أن تترك هنا ذكريات حلوة. ألست معي؟

قلت: لم أفعل شيئًا.

قال: أعرف أن الضرب كان مؤلمًا.. لكن ماذا تفعل لو كنت مكانه؟..

وقف أمام أحد فصول الصف الثاني. طرق الباب. عندما دفعه رأيت سعيد إسماعيل يشرح درسًا في اللغة الإنجليزية لتلاميذه وهو يشير إلى السبورة بعصا أكثر طولًا من التي ضربني بها. عندما رآني داعب شاربه بإصبعه. ووجدت نفسى اندفع كي أصافحه. نسيت نصيحة أخي، وسمعت تصفيقًا حارًا من تلاميذ الفصل.. قبلته على خده، وعدت للوراء. شدني الأستاذ فيصل وهو يبتسم كأنه يريد أن ينهي المشهد بسرعة. عندما أغلق الباب سألني:

– هل أنت راض؟

هززت رأسي بالإيجاب دون أن أتكلم.. ربت على كتفي مرة أخرى وقال:

- هيا.. الحق حصتك..

عندما دخلت ثالثة رابع سألني رائد الفصل الأستاذ عبد ربه:

- خيرًا..

قلت: لا شيء.. لقد اعتذرت.. له..

- أنت الذي اعتذرت.

- ألست أنا الصغير؟

- كنت أدرك أن الأمر أكثر جسامة.

رأيت إبراهيم خليل يقف في مكانه. بدا كأنه يناقشه في نفس المسألة. عندما عدت إلى مكاني سمعت إبراهيم يستطرد..

– بصراحة.. نحن لا نحب مدرسي اللغة الإنجليزية.. إنهم يتكبرون علينا..

ضج الفصل بالضحك. وسمعنا صوت الجرس يعلن انتهاء الحصة الثانية..

سألت صبيح عما قاله الأستاذ عبد ربه. فسألني بدوره محاطًا بأعضاء هيئة ثالثة رابع جميعهم عما حدث.. ردد أحدهم:

– هذا يعني أن الحكاية انتهت على خير..

هزرت رأسي:

– أعتقد هذا.. إلا إذا كانوا يبيتون نية..

قال حسني: حضرة الناظر حسم الموضوع..

عندما عدت إلى الفناء أثناء الفسحة الأولى لم أشعر أنني بطل قومي في المدرسة. فقد تمت المصالحة. وليس من حقي أن أفرد صدري أن أسمع عبارات تعبر عن كراهية الكثيرين لعصا سعيد إسماعيل. أقبل سالم نحوي بقامته الطويلة وجسمه الممتلىء وقال معلقًا:

– اعتذرت له. يا لك من خائب!!

ثم استطرد: لم يكن يقبل اعتذارك لولا إحساسه بخطورة موقفه..

لم أخبره أن أخي طلب مني ألا أعتذر. أردت أن أحول الموضوع؛ فسألته:

– سمعت أن "إيرما الغانية".. بدأ عرضه اليوم في سينما الهمبرا..

رد: طبعًا.. شاهدته من قبل في سينما ريالتو..

– لكنه للكبار فقط..

– ألسنا كبارًا؟

– أنت في الرابعة عشرة..

– أنا أدخل كل أفلام الكبار دون بطاقة..

– طبعًا.. لأنك لا تمتلك بطاقة..

– يقولون عنه أشياء كثيرة.

– أشياء.. وأي أشياء.. أتريد أن تشاهده؟

– طبعاً.. لكن هذا مستحيل..

– لأنك صغير.. ولم تستخرج بطاقة بعد.. أتريد أن تحاول؟

– أمر صعب..

– سوف نذهب يوم الأربعاء..

وجمعنا آفيش "إيرما الغانية" في التاسعة من صباح الأربعاء. وقفت أتطلع إلى صورة شيرلي ماكلين وبجانبها يقف جاك ليمون مفتش الشرطة الفرنسي الذي سيقع في العديد من المشاكل بسبب شجاعته في القبض على مجموعة من بنات الليل.. وقف سالم يشرح لي حكاية كل صورة من صور الفيلم المعلقة خلف الزجاج. هذه إيرما في عربة الشرطة متجهين إلى القسم. وهذه صورة جاك ليمون الضابط، بعد أن تخفى في شخصية رجل ثري جاء يطلب النصائح الجنسية من إيرما الغانية.

وتلك صورة شيرلي ماكلين تتعلق بثريا وهي تضحك. رحت أمني نفسي برؤية الفيلم بأي ثمن. أخرجت بطاقة أحمد عبد العظيم. أردت أن أنظر إلى المرآة الطويلة لأجد، وربما لأول مرة في حياتي، أوجه الشبه أو الخلاف بين وجهينا. وجهي في المرآة ووجه في صورة بطاقته الشخصية.

الاختلافات كثيرة. فهو أبيض الوجه وله شارب. سوف يكتشف عامل العرض حتمًا الفارق بين صاحب الصورة وبيني. وخاصة أنه يضع "بُفا" طويلًا على شعره الأسود الذي دهنه بالفازلين كعادته في العام الأخير. سألت سالم:

- هل يدققون جيدًا في البطاقات؟

- إذا ضبطوك، فاضربهم مثلما فعلت مع سعيد إسماعيل..

ارتجفت، وقبضت على البطاقة، وخفت أن تقع مني. ماذا يعني أن أدخل السينما ببطاقة شخصية يملكها شخص آخر. سوف أنال علقة أكثر سخونة من تلك التي نلتها من عصا سعيد إسماعيل. وآنذاك لن أجرؤ على الذهاب للقسم. ولن يعتذر أحد لي. بلى سوف يستدعون أخي حسن ويخبرونه أن أخاه الذي لم يبلغ الخامسة عشرة بعد انتحل صفة شخص آخر من أجل مشاهدة فيلم للكبار فقط. وعندما سيعرف سعيد إسماعيل الخبر سوف يفرح ويطردني من الصف أمام كل تلاميذ مدرسة رأس التين الاعدادية. وسيردد الأستاذ يوسف لطفي أن هذه هي النهاية المحتومة لأمثالي من المشاغبين. وسيحمد صبيح ربه أنه لم يأت معنا، ولم ينسل من المدرسة من أجل إيرما الغانية. سألت أحمد عبد العظيم وأنا آخذ منه البطاقة:

- لماذا يمنعوننا من رؤية هذه الأفلام؟

- لأن بها جنس..

ترى ماذا يمكن أن يفعلوا به لو اكتشفوا الأمر. قد يتنصل ويقول إنني أخذتها دون علمه. وقتها سوف أتهم بالسرقة. ترددت وأنا أرى عامل السينما يفتح باب الدخول اندفعت أجسام كل تلاميذ الحفلة الصباحية القادمين من شتى أنحاء مدارس المدينة من أجل عيون إيرما الغانية وتكتلوا من أجل الدخول، فجأة ارتفع صوت الرجل وهو يلعن ويسب آباءنا جميعًا. وطالب أن يقف الجميع في الصف. وأن يبرزوا بطاقات هويتهم. تحسست البطاقة من جديد وشعرت بالخوف. أحس سالم بترددي؛ فقال:

- ليس لي شارب مثل الكثير من التلاميذ..
- وماذا يعني؟
- سوف يشك الرجل في أمري..
- يمكنك أن تندس في الزحام.
- لكنه يدقق في البطاقات.
- حسناً.. لا داع للدخول.
- لكنك شوقتني لرؤية الفيلم..
- إذن تعال ندخل البلكون.
- لكن..
- لا تخف.. تعال..

- أقصد..

- يا سيدي.. أنا فاهم.. سوف أدعوك..

- لا.. شكرًا..

- يا معقد.. تعال قبل أن تنطفيء أنوار الصالة..

سرت معه إلى الباب الرئيسي لسينما الهمبرا.. لم يقف طويلًا أمام نافذة التذاكر اشترى تذكرتين من تاجر السوق السوداء.. بينما وقفت أتأمل ملامح الرجل الذي سيدخلنا، يبدو جامد الملامح يدقق في البطاقات. راح يرفع صوته قائلًا:

– كل واحد بطاقته في ايده..

قلت لسالم:

– هل سمعت؟

دفعني أمامه وقال:

– سوف أحميك..

انحشرنا في الطابور الأقل ازدحامًا ونحن ننفذ أوامر الرجل:

كل واحد بطاقته في ايده.. دفعني سالم وأنا أرفع بطاقة أحمد عبد العظيم وقلبي يدق في عنف. أمسك الرجل تذكرتينا. ومزقهما. وأعطانا الكعبين، ردد سالم ساخرًا:

- الصغار مثلكم يجب عليهم عدم رؤية هذه الأفلام..

اندفعنا وسط الطابور ومررنا إلى الصالة. ردد سالم:

– ابتدأ الفيلم..

صعدنا إلى البلكون. رأيته ينفح "الأبلاسير" خمسة قروش بأكملها كي نجلس في أفضل مكان. نظرت من أعلى إلى الصالة المزدحمة. ولم أر سوى ضوء مصباح عامل الصالة، شعرت بالراحة وأنا أجلس فوق المقعد. ليس لأنني تمكنت من الدخول والنفاذ من عنق الزجاجة، وليس لأنني سأشاهد بعد قليل إيرما الغانية، ولكن لأن المقعد من الجلد، يمكنني أن أسند ذراعي على مسنديه. إنها نفس المقاعد التي يجلس عليها مستمعو أم كلثوم كلما جاءت للغناء في سينما الهمبرا.

نظرت إلى الشاشة أشاهد الأحداث البوليسية للفيلم الذي يعرض قبل إيرما الغانية. بين وقت وآخر نسمع، كالعادة، أحد المتفرجين في الصالة، يسب شخصًا آخر ربما لا يعرفه. فجأة قام أحدهم بتنغيم كلمة "كابتن" بطريقة جديدة لم نعتدها من قبل فانفجرت عاصفة من الضحك والتعليقات.. وانطلقت الشتائم من كافة أنحاء الصالة تعبر عن استحسان لأسلوبه في التنغيم. بدأت مباراة حفلة الصباح المعتادة التي تقام بين فريقين من رواد صالة الهمبرا. تشتد حين ينصرف الكثيرون عن متابعة الفيلم الذي يشاهدونه.

فجأة، يطلق أحدهم تعليقًا ليجذب انتباه الآخرين: "أليس هناك ابن كلب يشتمني؟.. وسرعان ما تتدفق طلقات الشتائم بكافة أنواعها. وتتنافس الفرق في اختيار أكثرها وقعًا وأخفها ظلًا. تنفجر الصالة في الضجيج والضحك.. ثم تبدأ حالة سب جماعي. كأن تنطلق مجموعة في نفس الصوت مرددة "طظ في الصف اليمين" وسرعان ما يجيء الرد: "طظ في صف اليسار". ويتردد رد فردي متناغم: "هل هذه كلمة يا ابن الـــــ...." فتنفجر الصالة في عاصفة من الضحك.. تنطلق التصفيقات للاستحسان وتضاء أنوار الصالة معلنة الاستراحة.. وتبدو القاعة كأن شيئًا لم يحدث أثناء الظلام. يغادر بعضهم مكانه لشراء شطائر أو سجائر ثم يعودون قبل أن تبدأ إيرما في عرض حكايتها ومفاتنها عليهم. إنها تسكن حي البغايا في باريس. حي فقير محشور بنساء ملأت المساحيق وجوههن، وكشفن عن أجزاء متباينة من أجساد لدنة معلنات عن نماذج البضائع الموجودة. يقفن أمام بيوت ضيقة الأبواب. وما إن يدلف رجل يطلب المتعة حتى تجذبه المرأة التي اختارها وتصعد به إلى غرفتها.. هؤلاء النساء يعشن في أمن وراحة إلى أن يجيء للمنطقة شرطي جديد يأبى أن يحدث في منطقته كل هذه الأشياء فيبلغ قسم الشرطة الذي يرسل سيارة كبيرة يحشرون فيها رجالًا ونساءً كانوا قبل لحظات في قمة النشوة. هناك رجل وقور تم اقتياده مع العاهرات والرواد.. في قسم الشرطة يعلن الوقور عن هويته، وعلى الفور يتم التحقيق مع الشرطي الأبله الذي قطع النشوة عن رئيسه في ذروتها..

ها هو ذا يعود مرة أخرى إلى نفس المكان، ولا يحمل عصا الشرطة الغليظة الأقرب إلى عصا سعيد إسماعيل. يرتدي الملابس المدنية، يقف مخذولًا يبحث عن شخص يعرفه.. ترقبه النساء باشمئزاز. تتلقفه إيرما. تعرض عليه أن يحميها. بل أن يقيم معها ويسليها بعد أن تعود من عملها. تتغير حياته تمامًا. أراد أن يؤكد لها أنه رجل مثل الآخرين.. تخفي في شخص رجل آخر.. لورد ثري يبحث عن نساء الليل وعن تجربة عابرة.

لكزني سالم وهو يشير إلى معنى كلمة جريئة قالها إيرما الغانية للرجل.. لم أفهم ماذا يعني سالم، ولم أتساءل كيف تعلم هذه الأشياء وهو يصغرني سنًا.. ظللت أنتظر رؤية شيرلي ماكلين وهي تخلع ملابسها تمامًا فلم تفعل.. إنها مشغولة بحل جريمة قتل وهمية.. سألت سالم:

- إنها لم تخلع ملابسها.

عندما أضاءت الصالة همست له قائلًا:

- لا أعرف لماذا يعرض الفيلم للكبار فقط؟

وأخذ يشرح لى تفصيلات غريبة في الحوار لم أستطع أبدًا أن أستوعبها.

السنة الخامسة

يا له من شخص جذاب لدرجة أن دفعني للحضور إليه مرتين في أسبوع واحد.. لا. لم أجيء وحدي.. بل أغلب أبناء المدينة من كل الأعمار يزدحمون منذ يوم الاثنين الماضي أمام سينما ريالتو من أجل الحصول على تذكرة، والدخول إلى الصالة لرؤيته يقوم بكل هذه المغامرات،

ثم يفوز في النهاية بامرأة جميلة يرقد معها فوق العشب الأخضر. لم أتقبل مغامرته مع "الدكتور نو"، عندما شاهدته أول مرة في سينما الهمبرا.. ذهب وحده إلى جزيرة يملكها رجل يبغي تدمير العالم. ففجر له جزيرته وعاد بصيد ثمين. حسناء بالغة الجمال اسمها أورسولا أندريس.

اليوم يبدو أكثر جاذبية وخفة ظل، ويحوطه عدد أكبر من النساء. ماتت بعضهن من أجله. وبعضهن الآخر ارتمين في أحضانه. وأنقذ الاقتصاد الأمريكي من كارثة محققة. عزفت له موسيقى كالسلام الوطني حين دخل شرفة فندق مقتحمًا عرين ذات المايوه المرعب. وهي تسأله بهلع:

– من أنت؟

رد بثقة شديدة دفعتني أن أجيء اليوم لمشاهدته، من جديد، يردد:

- بوند.. جيمس بوند..

وبعد قليل طوى الجسد الأبيض بين ذراعيه، وخبط الميكروفون بإصبعه مهددًا ذلك البدين الذي يغش في اللعب.. وفاز بامرأة ليست كالقشدة. لأنها أحلى من القشدة، وليست كاللبن لأنها أطعم من اللبن. وليست كشيء نعهده، فهي كائن فريد. إذا أطلقت شعرها للخلف ترددت الآهات مكتومة، حاسدة هذا الرجل ذا الشعر الكثيف فوق صدره على الغنيمة التي فاز بها وحده.. حتى عندما دخل الشخص الغامض وقام بقتلها، ثم قام بطلاء جسدها بالذهب ليسد منافذ جسدها..

ماتت إحدى الجميلات اللاتى وقعت في غرام جيمس بوند.. في فيلمه الجديد "وكر الشيطان". أمسك بوند مسدسه وعلت شفتيه ابتسامة جذابة. ومن خلفه جسد شيرلي أيتون الذهبي.. لقد ماتت نساء كثيرات في دائرته الذهبية. فلم تكن أخت شيرلي بأقل منها جمالًا فهي ذات عينين أقرب إلى عيني شيرلي آن فيلد في "ملوك الشمس".. فتاة ماهرة تقود سيارة مسرعة تخترق بها الطرق الضيقة التي تمتلىء بها جبال أوروبا.. تطارد جولد فنجر الذي كان سببًا في مصرع أختها..

يا له من شخص براق، كل ما يحوطه يبرق. أجساد النساء وسياراتهن وعيونهن. حتى تلك الراقصة التي عانقها في إحدى الحانات، لمح في مقلتيها ظل رجل جاء ليقتله.. فاستدار إليه ودفعه في البانيو وصعقه بالكهرباء.. ثم نفض يده وقال قبل أن يخرج:

- منظر مؤذي!!

انفجرت الصالة تطلق عبارات الدهشة والاستحسان.. ثم بدأت مهمة جديدة للعميل رقم 7.. بين أوروبا والولايات المتحدة. العيون ترقبه بإعجاب. ابتسامته أجمل ما فيه. عندما حدثت أمي عنه أول الأمس قالت إن السينما حرام ولهو عن ذكر الله. أخذت أحكي لأخي الصغير مصطفى عن جيمس بوند الذي دمر قاعدة فورث نورث. والصيني الأخرس الذي يمكنه أن يفصل الرؤوس عن الأجسام بقبعته الحديدية. وعن المرأة التي عاركت بوند. فضربته علقة ساخنة انتهت بمشهد حار بين القش.. فأطلق المشاهدون صيحات الإعجاب..

تكررت نفس الانعكاسات في حفل الساعة الثالثة ظهر اليوم. السابع عشر من مايو 1965 الذي أعلنت فيه مدرسة العباسية الثانوية بمحرم بك أن ستة طلاب في الصف الأول سيبقون للإعادة. أما الباقون فناجحون. وكان على أم حسن أن تمنح ابنها الذي سيستخرج بطاقة هوية، بعد أسابيع، بضعة قروش كي يذهب لمشاهدة جيمس بوند.. لم أشأ أن أخبرها أن تكلفة رؤية الفيلم تعادل خمسة عشر قرشًا على الأقل. قرش منها للرجل الذي يرشدك بأدب إلى مقعدك المحجوز لك.. والباقى ثمن التذكرة. من أجل الجلوس فوق مقعد إسفنجي يغطس بك قليلًا وأنت تستند بظهرك عليه، فتحس أنك مهيأ لرؤية أجمل مغامرات الدنيا التي يقوم بها جيمس بوند..

وقفت أتطلع إلى أفيش الفيلم. اندسست بين متفرجي حفل السادسة. وقفت أمام صور الفيلم أسترجع أحداثه وتأملت جسد شيرلي

أيتون وهي ترفع ساقها وتنظر إلى جولد فنجر بمنظارها دون أن تحس بالقادم من الخلف. ثم صورة هونور بلاكمان وهي تقلب بوند فوق القش. وصورة ثالثة للصيني تصعقه الكهرباء. سوف أعود إلى حارة الفهد وأحكي للجميع عن رؤيتي الثانية لوكر الشيطان. سوف يعود فتحي عبد الحليم لمشاهدة الفيلم؛ فهو من المعجبين ببوند منذ فيلمه الأول. بل وقف يدافع عنه بحرارة، وهو يؤكد أن بوند دمر جزيرة الدكتور نو بالمنطق والعلم والخبرة. اليوم، أحسست أن بوند أكثر إقناعًا ومألوفًا لدينا.. مما دفعني لمشاهدته مرتين في أسبوع واحد، وفي سينما ريالتو.

وجدت نفسي أقوم بجولتي المعتادة بين واجهات دور السينما في محطة الرمل والعطارين وباب عمر باشا. اليل لم يحل بعد.. فالمغرب يؤذن في الثامنة حسب المواعيد الصيفية ولست في عجلة من أمري كي أعود. رحت أتأمل الأشياء حولي. وأنا أحس بالفرق الشاسع بين سيارات جيمس بوند، والسيارات التي تملأ الشوارع. ترى ماذا يمكن أن يحدث لو مرت سيارته في شارع الخديوي. وماذا سيفعل الرجل لو مر في حارات كرموز؟ هل ستتهافت عليه بنات البلد اللائي يملأن سوق البياصة؟.. وماذا يمكن أن تفعل حنان حين تشاهده. هل ستقع في غرامه وتذيب ذلك التحجر الذي غلفت به نفسها وهي تعلن عدم قدرتها على الحب حتى لأحمد عبد العظيم نفسه. ترى هل يمكن أن تعجب ببوند أكثر من عبد الحليم حافظ أو أحمد رمزى الذي له شعر في صدره أكثر كثافة مما يمتلك بوند..؟

عندما دخلت حارة الفهد رأيت أحمد عبد العظيم يقف، كعادته، عند باب المترل. سرعان ما تطلعت إلى شرفة حنان. لم أجدها هناك. رأيته يتكلم مع شخص يقف خلف الباب الخشبي السميك. سرعان ما أدركت أنها نعيمة. عاجلته:

– أحمد بوند.. واحدة في النافذة.. والأخرى عند الباب..

عاجلني وشتمني بأمي. قلت:

- الله يسامحك.. أمي هي عمتك.

برز وجه نعيمة من خلف الباب الخشبي. وسألت:

- ومن التي في النافذة؟

ثم تطلعت إلى نافذة حنان.. وقالت:

- ولو.. فأنا أجمل منها..

علقت: القلب وما يريد..

شتمني مرة أخرى بأمي؛ فقاطعته نعيمة:

- هل تقصد أنه يحبها؟ آه لو سمعت كلماته قبل قليل..

قلت مستكملاً مزاحي: رددها للعشرات من قبلك.

كرر الشتيمة وقال: أتسمح أن تهوينا.. من فضلك؟

تحركت بعيدًا وأنا أغني "قلبي الولهان.. محتاج لحنان" يا أبو ضحكة جنان" كررت المقطع.. تعمدت عدم النظر إليه.. فهو يعرف ماذا أقصد.. سمعني أردد، نفس المقطع بعد أن شاهدته يقف عند السلم أمام حنان وهو يحاول أن يمسك أصابعها.. ضحكت عندما رأتني وقالت:

- إنه مثل أخي..

علقت: أصابه فريد الأطرش بالعدوى..

قال آنذاك: أخرج من يافوخي.. وإلا..

قلت لحنان: سوف أحتمي بك حتى لا يضربني..

رد: أنا لا أضرب.. بل أنسف..

انسحبت بهدوء وعادت إلى بيتها.. بينما أخذ يصرخ فيَّ وأنا أردد "قلبي الولهان.. محتاج لحنان" خرجت أخته زينب.. فقلت لها:

- كان يمسك يدها..

بتلقائية ردت: من.. حنان.. لا.. إنه مثل أخيها..

شتمني يومًا. مثلما فعل الآن للمرة الرابعة. التفت إليه وقلت:

- هل حرمت علينا الغناء؟

هنا لمحت حنانًا تخرج من نافذتها المقابلة لنافذة جميلة. هتفت:

- الجاويش ظهر..

دفع بنعيمة خلف الباب. وقال:

- سوف تراك..

ضحكت وقلت: الجبن سيد الأخلاق.

استندت حنان على النافذة بعد أن وضعت وسادة صغيرة على الإطار الخشبي. قلت:

- هنيئاً لك.. واحدة في السماء، والثانية في الأرض..

نادتني نعيمة وهي تمسك ملاءتها السوداء بيدها وتضع فوق شعرها "مدورة" مزركشة. سألتني مرة أخرى:

- بذمتك.. أيهما أجمل؟

قلت: القلب.. وما يريد.

التفت إليه وقلت: لو كنت مكانك.. لدعوتها على وكر الشيطان.

رددت: أستغفر الله العظيم..

سألتها: ألم تسمعي الناس يتحدثون عن "وكر الشيطان"؟

- ماذا تقصد.. هل هم الإخوان الذين قبض عليهم؟

قلت: لو ذهبت معه.. فلا داع لهذه الملاءة..

- ماذا تعني.. أنا أكثر بنات كرموز أناقة..

- سوف تشاهدين جيمس بوند الذي تعشقه النساء.. إنه صورة مصغرة من أحمد عبد العظيم.

قال، وقد بدا عليه الارتباك:

- هل شاهدته..؟

- مرتين.. وحياة أبيك.

- حلو..؟

- قلت مرتين..

أشار إلى نعيمة وسألها: ما رأيك؟

أجابت: أحب الأفلام العربية.. عبد الحليم حافظ.. عمر الشريف..

قلت: عمر الشريف لا يعمل الآن في الأفلام العربية.

- أين هو؟

- عمل عقدًا مع الخواجات، ولن يعود ثانية إلى مصر.

- ألن يمثل أمام فاتن حمامة؟

- هي الأخرى سوف تعتزل السينما وتذهب إليه..

- يا خسارة.. أحبهما كثيرًا.

- جيمس بوند أجمل. لو رأيته يضاجع الجميلات لتمنيت أن تكوني إحداهن.

قالت موجهة كلامها إلى أحمد عبد العظيم:

- هذا الولد قليل الأدب.

نظر إليّ بغضب وقال:

- ألن تكف يا روح أمك؟

أجبت: خذ حذرك فأبوك قادم.

تسمر فجأة في مكانه، وارتشف لعابه. ودفع نعيمة إلى "الحناية" أسفل السلم وهو يقول:

- الرجل سيخرب بيتي..

عندما بلغ خالي باب المترل سألني:

- أين أحمد..؟

- قلت: لم أره يومًا.. أعتقد أنه على السطح..

هز رأسه وأنا أقول:

- مبروك نجاحه.. يا خالي..

تمتم بغيظ وقال:

- الله يخرب بيته.. لا يزال في أولى تجارة.. زملاؤه سبقوه.. صعد إلى شقته. خرج ابنه بعد قليل وقال مغتاظًا:

- هل كان يجب أن تثرثر معه؟

قلت: أليس من الواجب أن أهنئه على نجاحك؟

قبل أن أنهي جملتي قطعتها وقلت:

- إلحق فحنان تخرج من منزلها..

أحسست بقلبه يدق أكثر مما حدث عندما جاء أبوه. عاجلته:

- بسرعة.. تحت "الحناية".

بدت نعيمة مرتبكة. خلعت ملاءتها السوداء، وبدت بذراعيها البضين. كأنها ستدخل سباقًا ساخنًا مع حنان التي أطلقت علينا تحية المساء. تهادت قليلًا ثم سارت ناحية حانوت العم محمود بائع الفول. سرعان ما

عادت وفي يدها الطبق الفارغ. كررت تحية المساء. ثم مشت ناحية بيتها. مسكين أحمد عبد العظيم، فهو في وضع لا يحسد عليه. لعله يتمنى أن تقف نعيمة وسط الحارة وتمطره بالقبلات حتى تكتوي حنان بالغيرة. لعله يشعر ببعض الارتياح. فهو يتصور أنها فعلت ذلك من أجله. مسكين فهو لا يعرف أن حنان نزلت مخصوص من أجلي أنا.. فهي لا تتصرف هكذا إلا عندما تراني واقفاً عند باب المنزل..

يا إلهي.. ما هذا..؟

فجأة رأيت دخانًا يندفع من منزل الدقة.. قذيفتان صغيرتان تنطلقان من نافذة نبيل. لعل أمه قد قذفت، كعادتها، بكيسين من الزبالة إلى الشارع. فجأة سمعت صوتًا جهوريًا ينطلق من الإسطبل. تراجعت حنان نحونا. وضربت نعيمة صدرها بهلع بينما ردد عبد العظيم بصوت مرتعب:

- إلحق.. البيت سيقع..

ارتجفت وأنا أصعد السلم. ثم أعود مرة أخرى وأنزل إلى الشارع. سمعت صوت خالي يتنفس:

- ماذا هنالك؟

رد ابنه: بيت أم الدقة سيقع..

رأيت عبده العربجي يندفع بحصانه البني ناحية الشارع.

واندفع صراخ النساء من كل البيوت، وخلع محمد علي جلبابه واخترق باب البيت وسمعت زوجة حسن تصرخ:

- الحقونا.. أولادي سيموتون..

لم أعرف ماذا يمكن أن افعل. أمي تولول خائفة على بيتها. انطلق خالي عبر النافذة ينادي ابنه الذي هرول نحو بيت حنان المقابل لبيت الدقة. انخلع قلبي وأنا أنظر إلى بيت جميلة. لا أحد فيه يسمع كل هذا الهرج. قبل أن يجيء صوت أحمد عبد العظيم رأيت الدخان يندفع بقوة من المترل. وفر حصان أبيض مع صاحبه عبده العربجي. ثم تحطمت بعض ألواح البيت الخشبية. تساقطت من أعلى النوافذ أحجار بيضاء وارتفع دخان كثيف. هرولت نحو شارع التميمي. رأيت لؤلؤ يجري بجانبي وهو يجر بعض العجلات التي يؤجرها لصبية الحي. دوى انفجار شديد. وعلا المكان غبار أبيض كثيف. وخلت أن كرموز كلها قد تهدمت.

تحسست رأسي وأنا أحاول أن أبتعد قدر الإمكان عن التراب الأبيض الذي يطاردنا.. اهتزت الأرض. شعرت أن القيامة قد حلت. سمعت صوت جدي يهمس لي، من جديد، بأنه في يوم القيامة "يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت" بدأت أبحث عن الذئب الذي سيحرك الرياح يوم القيامة. لكنني لم أر سوى كلبًا يعوي وأنا أحاول قذف قدمي قدر الإمكان كي أعود. فالبيوت في مكانها. والتراب الأبيض تخف حدته في ردهة حارة الفهد. بدأت الوجوه تتكشف. رأيت لؤلؤ وقد استطاع أن يلم

دراجاته في مكان أمين. أسرعت نحو البيت كي أطمئن على أمي، سمعت خالي يصرخ وهو ينادى ابنه. بينما لاتزال زوجة حسن تولول على السلم:

"ابنائس.. أبنائي" وتنادي على ولديها بالاسم. سمعت أمي تناديني فقلت "هأنذا".. وسط النحيب قالت:

- تعال يا كلب.. أين ذهبت؟

قلت: أنا أول من شاهد البيت ينهار.

قالت: اطلع يا ولد..

سألتها: هل مات أحمد؟

أحسست بالجزع وأنا أتخيل الدقة ونبيل راقدين ممزقي الجثث بين الأنقاض. رأيت جولد فنجر يندفع في جوف الطائرة فتسحبه الرياح الشديدة وتجذبه من الكوة الضيقة، رغم بدانته، وتلقي به من أعلى السماء. أما جيمس بوند فقد فاز بحبيبته.. ترى ماذا حدث لحنان. هرولت إلى أسفل مرة أخرى. وخرجت من باب المترل. رأيت أمها هرول نحونا.. وجاء أحمد عبد العظيم يمسك يد حبيبة القلب وقد امتلأ وجه كل منهما بآثار الغبار الأبيض. تساءل خالي:

- هل مات أحمد؟

- لا أعرف.. كأننا في يوم حشر.

سأل خالي مرة أخرى: وأين بقية أبنائك؟

ردت حنان لاهثة: قادمون.. وسد الركام باب مترلنا.. كدنا أن نختنق.. سألت: هل مات أحمد؟

لم ترد.. سألتها مرة أخرى. هل مات نبيل؟

يتصاعد التراب إلى أعلى، ويسود الظلام، إلا من ضوء مصباح الشارع الأصفر الخافت. أشباح تتحرك هنا وهناك. تمتزج الأصوات ويمكنك أن تميز أصحاب بعضها بينما البعض الآخر يبدو غريبًا على مسامعك. يصيح لؤلؤ أنه من الضروري إبلاغ الشرطة. يطلب جرجس إناءً من المياه من أجل أحد الناجين. تولول أم الدقة زاعقة "يا خراب بيتك، يا خراب بيتك".

التففنا حولها: أحمد عبد العظيم، وخالي، ولؤلؤ وفؤاد العريش الذي سألها:

- هل اصاب أحد مكروه؟

ظلت تكرر عبارتها دون أن ترد على أحد. تمسك بيدها منديلًا كأنها تنعي شخصًا مات، بل مائة شخص. فجأة رأيت الدقة يقف إلى جوارها. احتضنته بشوق وهي لا تكف عن النحيب. أمسكته من يديه وراحت تتحسسها:

- حمدًا لله على سلامتك.

بدا متماسكًا. قال:

- والبنات..؟

سألها لولا: وأمك..

ردت: لا أعرف.. كما ترى.

ثم كررت ولولتها من جديد. هنا كان الغبار قد انقشع تمامًا. ورأينا البيت وقد تحول بأكمله إلى كومة من التراب الأبيض المتراكم وسط الحارة. وسد باب المترل المقابل الذي تسكنه حنان. لم يتهدم شيء من المنازل المجاورة. رأيت سقفاً معلقًا في مترل الدقة. غرفة عالية في الدور الأخير. بدت كأها آثرت البقاء هناك. بينما ظهرت غرف أخرى في الدور الثالث نزعت عنها جدراها الخارجية. فكشفت ما بداخل الغرفة التي التصقت بجدار المترل المجاور. وظهرت صورة والد نبيل، وسط الظلام معلقة على الحائط.

سمعنا صوت سيارة الشرطة في شارع النيل تقترب من حارة الفهد. بينما نادتني أمي من جديد أن أصعد. اكتشفت أنني يمكنني أن أشاهد المنظر أفضل من سطح مترلنا.. أسرعت أجرب الدرجات عاجلتني أمي.

- أتريد أن تعذبني؟

قلت: أصدقائي يموتون.

ردت: لم يمت أحد..

سألتها: كيف عرفت؟

ردت: يقولون إن الجدة هي الوحيدة التي لم يعثروا عليها.

سألتها مرة أخرى: كيف عرفت؟

ردت: أنظر.. ها هي..

عبر الضوء الخافت لنور الحارة. رأيت جدة الدقة تجلس فوق الرصيف كعادتها. كأن شيئًا لم يحدث.

بدأ رجال الشرطة في النزول من سياراتهم. وسمعت بعضهم يطلب من الناس الابتعاد عن الأماكن التي يقفون عندها يتفرجون.

رددت أمي:

- الحمد لله.. لم يمت أحد.

عاجلتها: لكن الخراب أصاب بيوت الناس.

ردت: ربنا يعوضهم.. المهم هو الإنسان..

ارتفعت أصوات رجال الشرطة. وعلت "سرينة" سيارة الإسعاف. وبعض سيارات المطافيء. دب في الحارة نشاط وحركة من نوع آخر. أم الدقة تنعي بيتها وثروتها. ورجال الشرطة يحاصرون المكان ويحذرون بعدم الاقتراب من الأنقاض. سمعت الجدة تردد:

- نقودى هناك.. مائة ألف جنيه.

كتمت الضحك، فهي لا تملك مليمًا واحدًا.. بعد أن كتبت هذا البيت منذ عامين بأسماء أولادها التسعة حتى لا يحدث فيما بينهم صراع عقب وفاتها. ألح أبناؤها أن تفعل ذلك. داعبوها. ودللوها حتى بصمت بأصابعها العشرة فوق أوراق التنازل. دعاها كل منهم للغذاء في بيته على وجبة دسمة ما لبثت أن خفت دسامتها بعد أسبوع. ووجدت نفسها ترقد وحيدة فوق السطح لا يذكرها أحد بلقمة. رأيتها قبل أسبوع تلتقط بعض اللقيمات من صاحب الفرن الأفرنجي المجاور لسينما الجمهورية. قالت أختي نعمة:

- لعلها تخبىء نقودًا..

سمعت العجوز تقسم:

- مائة ألف جنيه في الإسطبل.. أجل مائة ألف جنيه.

سمعت ضابط يقول لها:

- اطمئني.. سوف نضمن لك سلامتهم.. أهم شيء هو البني آدم.

قالت أم نبيل:

- لا يوجد أشخاص ولا نقود.. كل ما راح هو الأثاث.. في ستين داهية..

بدأ رجال الإنقاذ في رفع بعض الأنقاض.. ومزق بعضهم أسلاك الكهرباء المعلقة في الهواء.. وارتفع السلم الخشبي مرة أخرى من أجل إلقاء نظرة على بقايا الغرف التي لم تتهدم. صاحت نعمة فجأة لأمها:

- اسمعي. إنه فحيح ثعبان..

التفتت أمي في حذر وقالت:

- الثعابين تهرب من البيوت المتساقطة. أغلق الأبواب بسرعة..

إنها ليست المرة الأولى التي نرى ثعبانًا فوق السطح عقب هدم أحد منازل حارة الفهد.. حدث هذا قبل سنوات عندما "وقع" منزل أم رجب المجاور لمنزل الدقة.. يومها صعدت أم حسن إلى السطح العلوي وواجهت ثعبانًا أسود سميكًا بالقبقاب. ولم تهدأ إلا بعد أن هشمت رأسه تمامًا سألت:

- هل ستصعدين إليه الآن؟

قالت بثقة:

- أعرف أين سيرقد هذه الليلة. سوف أصعد له في الصباح.

دخل أخي علينا ونحن ننظر إلى الجنود يقومون بعملهم. لم يكن هنا حين هوى المنزل.. علق.

- ربك ستار.. الحمد لله.. لو تأخر ساعة لمات كل سكانه..

علقت أمي:

- ربك كريم..

سألتها:

- ترى أين سيقضون ليلتهم؟

رد أخي: سيبقى كل منهم إلى جوار الركام، حتى يضمنوا أن شيئًا لم يسرق.

همست في أذن أمي:

- هل يمكن أن آتي بالدقة ونبيل كي يناما في غرفتي؟

رفض نبيل أن يصعد إلى الغرفة بحجة أنه سينام عند خالته رضوانه. تنهد الدقة وهو يخلع ملابسه ثم وقف أمامي بملابسه الداخلية، وقال:

- من كان يصدق؟

نظر من النافذة إلى الحارة.. ثم تنهد.. آثرت أمي أن تبقى هناك.. بينما أصرت جدته أن مائة ألف جنيه ورقية موجودة تحت الأنقاض، في مكان ما بالإسطبل. عرفت أن حنان نامت في شقة خالي.. فوق سرير زينب عبد العظيم. لا يفصلها عن أحمد سوى الجدران.. لم أشعر بالضيق.. فأنا أعرف أن قلبها. وهو لا يمكن أن يتلصص عليها مهما كان الثمن. فالشقة مزحومة بالأفراد الذين افترشوا الأرض من أجل النوم. خافت أسرها من

العودة إلى المترل حتى لا يحدث مكروه أثناء الليل. وخاصة أن الأنقاض سدت جزءًا كبيرًا من المترل. رأيت أحمد عبد العظيم يقف على الناصية يدخن سيجارته الليلية قبل أن يصعد إلى شقته. وأنا أدخل الغرفة سمعت تنهيدة جديدة من صدر الدقة وهو يكرر:

- من كان يصدق؟

قلت أواسيه:

- قل الحمد لله.. الله كبير.

عندما تمدد فوق أريكتي بدا شاردًا.. لم يتكلم كثيرًا كعادته. كدت أن أخبره أن ما حدث عقاب لعائلته على ما اقترفته مع الجدة.. فجأة خرج عن صمته وقال:

- هل تعرف أن الله كبير حقًا.. ليس فقط لأن المترل لم ينهر في منتصف الليل.. بل لأن الغرفة التي لم تقع..

وسكت.. حاولت أن أحثه على الكلام.. تنهد وتقلب في مكانه. قلت:

- مائة ألف جنيه؟

رد.. إنها امرأة مجنونة.. أصابها الخوف.. لكن..

وسكت مرة أخرى.. ثم عاد للكلام..

- هناك كل ثروتنا الأموال التي سنجهز بها شقق أختينا.. آمال وميرفت..

سألته..

- مائة أل..

نفث هواء من منخريه وردد:

- يا..

- يا غبي.. قلت لك "مهر" البنات.. هل يبلغ هذا مائة ألف جنيه؟

سكت قليلًا ثم قال:

- كل الناس يتكلمون عن النقود، عن الأشياء التي تحطمت: الأثاث، والملابس، الإسطبل. لكن أحدًا لم يتكلم عن الأشياء التي تم إنقاذها.. لم يذكروا الجياد التي أخرجوها في اللحظة الأخيرة من الإسطبل.

عاجلته:

- مات واحد منها..

قال.. مات واحد منها فعلًا.. لكن عبده العربجي أنقذ أحد عشر حصانًا. من أغلى الأحصنة في الاسكندرية كلها. هل تعرف ثمن الواحد منهم؟

هززت رأسي، فأكمل.. لا داعي للبكاء على اللبن المسكوب.. أنا ابن حوذي.. وأعرف أن الجياد أغلى شيء عند الحوذيين. كان عبده العربجي يعرف أن المترل يتهاوى. وأنه يمكن أن يضيع تحت الأنقاض. وبمجرد أن خرج من الإسطبل انهار البيت كله.

تذكرت جيمس بوند وهو ينقذ مبنى نورث فورت المليء بالذهب في الثواني الأخيرة قبل الانفجار الذي يمكن أن يدمر الاقتصاد في الولايات المتحدة بأكملها. حاول إيقاف القنبلة الموقوتة دون أن يتمكن. تهرب الأرقام بين أنامله وتقترب من الصفر. لكنه لم يفقد الأمل.. وبحركة عشوائية توقفت القنبلة قبل سبع ثوان. عبده العربجي كان أكثر مهارة كما يردد الدقة. أحس أن البيت قد يقع بين لحظة وأخرى. لذا ظل ينام أسفل الإسطبل بجوار الجياد التي يعتني بها وينظفها. يؤمن أن الأحصنة أجمل من الآدميين. وأكثر هدوءًا ووفاءً.. بجوار السابلة افترش لنفسه مكانًا صغيرًا واعتزل الناس. اتهمه بعضهم أنه يعشق أحد الأفراس وأكد طفل صغير أنه دخل الإسطبل يومًا كي يغتسل في الحوض بعد مباراة كرة شراب فرأى عبده يحتضن فرسًا أبيض وهو يمسك ما بين فخذيه. لكن أحدًا لا يجرؤ أن يجهر بهذه الواقعة. فعبده يمكنه أن يقف أمام كل رجالات الحارة بل ونسائها.. حتى إبراهيم الحنش يهابه ولا يستطيع الاحتكاك به.. ردد الدقة

أن عبده يمكنه أن يهدم حائطًا بضربة كف. بل يمكنه أن يهدم بيتًا إذا دفعه بيديه. ومع هذا فقليلًا ما رأيناه يتحدث إلى أحد.. عرف كيف يخاطب الجياد وكيف يسوسها.. قال لأمه قبل أيام أن البيت سيقع، وعليها أن تذهب إلى بيت أخيها. وأن تدع هذا المكان الأجرب يسقط على أصحابه عقابًا لهم على ما فعلوه بها. وقبل أن يتهدم البيت سمع عروق الخشب تطقطق. ورأى الأتربة تتناثر من السقف. سقطت بعض الأتربة فوق السابلة. أسرع إلى باب المترل ونادى إخوته محذرًا. ثم عاد إلى الإسطبل، وبدأ يخرج الجياد.. الواحد بعد الآخر. وكلما أخرج فرسًا. انفتح السقف أكثر.

تنهد الدقة وهو يتمدد فوق الأريكة وقال..

- هل عرفت من أشطر.. جيمس بوند.. أم خالي عبده..؟

قلت.. لم أر خالك عبده.. لكنني رأيت جيمس بوند..

ردد بجدية لم أعتدها منه..

- عيب السينما أنها تجعلنا نتقبل حكاياتنا اليومية باستخفاف.. وأنا أشرد قليلًا. قلت:

- ربما..

سألني. هل تذكر كيف نعيد إخراج بعض الأفلام التي كنا نحبها..؟
هزرت رأسي. قال..

- كنت أتقمص شخصيتي: بول براينر، وكيرك دوجلاس..
قد يكون هذا سهلًا.. لكن أبدًا. لا يمكن لواحد منا أن يتقمص شخصية عبده العربجي. لم أصدق وأنا أراه في أول الأمر تصورت نفسي في فيلم سينمائي. لم أبرح مكاني حتى وأنا أرى الجميع يتلهف على النجاة. والنزول إلى الحارة.. أحسست أنني أخرج مشهدًا طالما رأيته على الشاشة، وأن هذا البيت الذي أقمنا فيه لا يمكن أن يكون مقبرة أخيرة لأي واحد منا.. ورغم أن البيت انهدم.. ورغم أني أنام هنا. تحت سقف آخر يختلف.. إلا أن شيئًا لم يهتز في داخلي.. هل تعرف ما الذي آلمني في كل هذه الحادثة؟

قلت واجمًا:

- ماذا؟

رد.. بعد أن انتهى كل شيء رأيت عبده يجلس إلى جوار أحد جياده، وأخذ يبكي بحرقة، هل تعرف على من بكى على جواده الذي لم يتمكن من إنقاذه.

السنة السادسة

اندفعت حافلة ضخمة، وقتلت أحمد عبد العظيم..

طرق رجل غريب باب شقة خالي وسأله بأدب:

– حضرتك عبد العظيم..؟

سمعته يرد عليه: أجل.. خيرًا..؟

قال الرجل:

- ابنك أحمد.. وقع أمام باب المدرسة.. يبدو أنها حالة إغماء..

ارتفع صوت خالي الأجش.. وسمعته يسأل:

– وأين هو الآن؟

رد الرجل:

– في المستشفي الأميري.. على ما أعتقد..

نادى خالي أخته التي هبت ملتاعة. ونزلت وهي تسأل الرجل الغريب:

– خير يا أخي.. ماذا هناك؟

رد الغريب:

- لا شيء.. ابنكم في المستشفى. حالة إغماء اصابته عقب انتهاء الامتحان..

ابتسمت ساخرًا. وأنا أقول لنعمة:

– لعله لم يجب جيدًا على الأسئلة، فأراد أن يمثل إحدى تمثيلياته.

إنها فرصته الأخيرة في النجاح. نعرف أنه من الصعب أن ينجح هذا العام. في الأسابيع الأخيرة ازدادت العلاقة توترًا بينه وبين أبيه فهدده بالطرد النهائي من المترل إذا رسب هذا العام.. ردد لأمي متحيرًا:

– لا أعرف ماذا أفعل به؟ لقد أصبح أطول قامة مني.. وشاربه أكثر سمكًا من شاربي..

ترد أمي:

– سوف ينجح إن شاء الله.. فهو يعرف دروس العام الماضي.. ولا يحتاج إلا لمراجعة بسيطة..

استشفت أمي معاني العبارة من ابن أخيها ذي الشارب الكثيف الذي يحكي لها دائمًا عن حبه لحنان، وأنه يذاكر بجدية، هذه المرة، كي يحصل على الدبلوم ويعمل، ويتقدم لأبيها ويتزوجها. كلما سخرت منه وأنا أعلق "هيمان" قام وسبني بأمي التي قالت له ذات مرة: "الله يسامحك يا بني". قال وهو يلعن أسلاف جدودي:

- لو سمعته فستكون فضيحة.

وسمعتني حنان فعلًا..

كنت نازلًا فوق السلم. سمعت صوته عند باب المترل يتحدث مع شخص خِلته نعيمة. بدأت أردد أغنية فريد الأطرش بأكثر من إيقاع. عندما بلغت الباب رأيت عينيه قد تحولت إلى قطعتين من الطماطم الفاسدة. قال:

– عاجبك.. يا ابن..؟

رأيت الشر يقفز من عينيه فيملأ جدران المترل الصغير.

ارتجفت وسألته بصوت خفيض:

- أين ذهبت نعيمة؟

علا صوته قائلًا:

- لم تكن نعيمة يا ابن ستين.

حاولت أن أمازحه مخفيًا إحساسي بالارتباك:

- هل كانت هي؟

صفعني بقوة على رأسي. أحسست أن ثمرتيَ الطماطم اللتين برزتا من عينيه انتقلنا إلى خدي الأيمن. لم أتمالك نفسي وأنا أقول:

- يا ابن ستين...

وهجمت عليه، لكنه تفادى ضربتي، وعاجلني مرة أخرى، ثم دفعني بعيدًا.. جرى نحوي وقد استبد به غضب لم أعهده في بشر. فجأة انحنيت. اصطدم جسده النحيف بالحائط، فسمعت صوتاً مكتومًا، خلت أن رأسه قد شج. هرولت ناحية السلم. نظرت خلفي فرأيته يمسك رأسه بيديه. ويزيد من حساباتي في سب أمي وأبي. أسرع خلفي على السلم فهرولت إلى شقتنا الصغيرة وأغلقت بابها الخشبي قبل أن يلحق بي وهو لا يكف عن الزعيق. طرق الباب بشدة. خرجت أمي تستطلع الأمر. قلت لها:

- يريد أن يضربني.. كل هذا بسبب فتاة..

علا صوته أكثر:

- لا تلفظ بها على لسانك يا ابن ستين..

فتحت أمي الباب. وسدت عليه الطريق وقالت بغضب:

- ماذا.. يا ولد.. ألا يوجد شخص قادر على ردعك؟

نادت على أخيها، فجأة انكمش، وانخفض صوته كما توقعنا.. وردد:

- طيب.. سأريك.. لو كنت شاطر انزل الحارة..

قبعت طيلة النهار في نافذتي الصغيرة.. يقف عند الناصية. كلما ناديته "هيمان" بصوت عال.. قذف إليّ بحفنة من الشتائم المرصعة بأغلى البذاءات تعمدت أن أغيظه بنفس الكلمة عندما رأيت الدقة يقف إلى جواره..

الدقة هو الشخص الوحيد الذي تنبأ بحدوث شيء جسيم في حارة الفهد. أخذ يردد قبل أشهر ثلاث كلمات مبهمة: ستة.. ستة.. ستة وستين.. قال:

- أحس أن شيئًا سيحدث في هذا اليوم.

في صباح الخميس الثاني من يونية، أى قبل الموعد الذي حدده الدقة بأربعة أيام، وقفت في نافذتي أنظر إليه يذهب إلى الامتحان.. إنها المرة الأولى الذي يذهب إلى الامتحان وحده.. طوال الأسبوع يذهب إلى مدرسته في محرم بك ودون أى رفيق من أعضاء شلتنا التي تناثرت.. انتقلت أسرة نبيل إلى الحضرة.. أما فتحي عبد الحليم وأخوه فقد انتقلت أسرتهما إلى محرم بك. ولم يبق في حارة الفهد من شلتنا، سوى نحن الثلاثة: أحمد عبد العظيم.. والدقة.. وأنا.. رفع رأسه إلى نافذتي، وقال:

- لن أشتمك اليوم.. فهو آخر يوم لي.. وعندما أعود من الامتحان سأمنعك من النزول إلى الحارة.

ثم سار ناحية عمود السواري.

نزل خالي عبد العظيم، وحده، واتجه إلى المستشفى الأميرى. فجأة انقلبت حارة الفهد رأسًا على عقب يتساءلون عما حدث لأحمد عبد العظيم. تقف حنان قلقة في نافذتها. تسأل أم عبده عما حدث. قالت نعمة:

- يبدو أن إغماء أصابه أثناء الامتحان.

قال واحد من الحارة:

- يقولون إن سيارة خبطته.

بعد قليل نزل أخي إلى المستشفى. جاءني الدقة، وردد:

- من الواجب أن نذهب..

قلت له:

- أقسم أن يضربني عندما سيراني سيبطحني علي رأسي..

شد الدقة على كتفي، وقال:

- لا تكن جبانًا، أعرف أن الأمر أكثر جسامة مما تتصور..

في الطريق إلى المستشفى قال:

- ربنا يستر.. ستة.. ستة.. ستة وستين.

وصلنا باب الاستقبال في الحادية والنصف. رأيت خالي يخرج من الباب الحديدي، وخلفه حسن. بدا خالي، كعادته، متماسكًا. وكأن ابنه لم

يصب بإغماء. رأيت وجه حسن كأنه لشخص آخر. وكأن إغماءً سيصيبه. سألت:

- خيرًا.

ردد شخص حولنا:

- كانت خبطة السيارة شديدة.

تساءلت:

- هل أصابه جرح؟

فجأة انحنى أخي بجوار جدار المستشفى، وجلس القرفصاء، رأيته لأول مرة في حياتي يجهش وينادى باسم أحمد عبد العظيم أكثر من مرة. منعني الجزع أن أسأل عما حدث لكن صوت خالي جاءنى عبر صدى بعيد يردد:

- الله يرحمه.. الله يرحمه..

تمتمت:

- مات!. هل رآه أحد؟

اتسعت الدائرة من حولنا.. رد أحدهم:

- جثة في المشرحة.

سألت من جديد:

- هل رآه أحد؟

ارتفع صوت حسن، وهو ينتحب بشدة. لم أعرف أي المواقف أكثر غرابة: أن يموت أحمد عبد العظيم الذي تعهد أن يضربني حين يعود من امتحان آخر يوم.. وأن يمنعني الخروج من شقتي.. أم أن يبكي أخي وهو جالس القرفصاء بكل هذه الحرقة.. قالت امرأة بدينة تقف مستطلعة الأمر.

- يا بني.. حرام عليك البكاء بهذه الطريقة.. تذكَّر رحمة ربنا..

وزادت حدة نحيب حسن.. انحنت المرأة في حنو باد. وربتت على كتف أخي وحاولت مساعدته في النهوض. استسلم لها بيسر، وقف وهو يمسح دموعه بمنديله. سمعت خالي يردد:

- هيا.. يجب أن "يخرج" اليوم.. حتى لا نتأخر.

أشار خالي إلى سيارة أجرة ركبها مع حسن، بينما وجدت نفسي لا أزال في مكاني.. عندما تنبهت إلى الدائرة التي انفضت لم أر شخصًا أعرفه، لعلهم ركبوا سيارات أخرى.. وقفت أمام محطة الأتوبيس أنتظر رقم "9" الذي ألقاني أمام حارة الفهد. لا أعرف كم من الوقت تحرك! لكن ما أن وطأت قدماي حارة الفهد حتى رأيتها ساكنة كأن شيئًا لم يصب أشهر أبنائها. قبل ان أخطو خطوتي الثالثة تدفقت الرءوس من النوافذ ومن فوق

الأسطح، فتحولت الحارة إلى غابة من رؤوس البشر، وانحشرت فوق رأسي مئات العيون وأنا أشعر بثقلها المتناهي ينوء فوق صدري. صمت رهيب يسود الحارة. ربما لأول مرة في مثل هذه الساعة من النهار. ليس في تاريخ حياتي فقط. بل في تاريخ حارة الفهد العتيقة. قبل أن أدخل باب منزلنا، اقتربت مني فاطمة الفلاحة وسألتني:

- ما الخبر؟

لفظت بحرف واحد من كلمة "مات" وسرعان ما نقلته إلى غابة الرءوس، فانحشرت الصرخات داخل دروب البيوت قبل أن أدخل المنزل. رأيت الدقة يشير إليّ من طرف الحارة. وقفنا على الناصية نرقب النساء يولولن. ثم ذهبنا إلى فراشة سعد لنجد خالي يجري الاتفاق لإقامة السرادق. بدأت الأوتاد تضرب رأسها في حارة الفهد وتنغرس فيها أعمدة خشبية سرعان ما كونت سرادقًا ضيقًا وطويلًا.

وقف عاشور يحيك ثوب التابوت، وقد أحنى ظهره كالعادة، وبدأ عامل الميكرفون يجرب سماعته "واحد اثنين ثلاثة عشرة"محلات الحاج عباس للأفراح وليالي القرآن الكريم.. واحد اثنين ثلاثة.. وقبل أن ينفتح ثانية سمعت هرجًا غريبًا قادمًا من شارع النيل. هرول الجميع ناحية سيارة الإسعاف القادمة لتوها من المستشفى الأميري. ببطء شديد تقدمت وسط الأجساد التي ضاقت عليها الحارة. نظرت عبر نافذة ضيقة لأرى لفة بيضاء راقدة فوق حامل صغير. فتمتمت غير مصدق:

- يا إلهي.. هل هذا هو أحمد عبد العظيم؟

ثم استندت إلى الحائط. يدفع المشيعون بعضهم البعض. وتتبارى نسوة حارة الفهد في إطلاق صرخاتهن لتكريم أحمد عبد العظيم في "دخلته" الأخيرة للحارة "لن أشتمك اليوم. فهو آخر يوم لي. وعندما أعود من الامتحان". اقترب عاشور بتابوته من سيارة الإسعاف بينما توالت تلاوة الآيات القرآنية من أفواه عديدة وفمي يردد الشهادة في هذيان واع، وأيد ترفع الجثمان برفق وتنقله إلى النعش. حدث هرج جديد. طالب بعضهم بقراءة بعض الآيات قبل أن يتحرك موكب الجنازة، لكن أباه أمر بسرعة السعي حتى لا تزداد الحرارة لهيبًا. انطلق النعش بسرعة غريبة يمرق شارع النيل.

خلت أن الذين يحملونه يتبارون في مباراة جري من أجل توصيله إلى مقبرته. وجدت نفسي أسير في آخر طابور المشيعين. عند سينما النيل وقف الجالسون في المقهي احترامًا للجنازة المهرولة. رأيت صاحب "التاج والهلب" يرفع سبابته وهو يتمتم بالشهادة. لم أجد وقتًا للتساؤل عن سبب جري هؤلاء المشيعين وراء النعش.. لكنني أردت مغالبة قدمي كي تلحقا بالجنازة. عند مسجد القومندان وقفنا بينما وقف حسن يؤم صلاة الجنازة. لمحت خالي يقف جانبًا كأنه يقوم بدور المايسترو لهذا المشهد العظيم.. سرعان ما تمتموا بصلاتهم. ورفعوا النعش فوق أكتافهم، ودخلوا باب المقابر الأوسط. عرفت أن أحمد سيدفن في مقبرة جده التي تحمل اسمه.

تناثر المشيعون حول المقبرة الواطئة، وانطلقت صرخات النساء عالية حتى ليكاد يسمعها من يقف عند مدرسة رأس التين. ميزت صوت أمي وقد بحت نبراته من كثرة النواح. بينما لمحت خالي، من جديد، يراقب المشهد كأنه مخرج سينمائي يتابع ما يحدث ويطمئن على جودته وفنيته. وبعد دقائق وقف خالي على رأس طابور المتلقين للعزاء. بينما آثرت الوقوف في آخر الصف أتلقى مصافحة مئات الأيدي بينما النساء في العودة إلى منازلهن. سرعان ما فرغ المكان من هذا الحشد الكبير. رايت اللحادين يعملون آلاتهم في المقبرة بينما جلس شيخ إلى جوارها يلقن المرحوم بعض النصائح من أجل مجابهة الموقف العسير في الحساب داخل المقبرة، حين تنزل عليه الملائكة لمحاسبته ومسائلته عما فعله. بدأ خالي يوزع من نقوده ذات اليمين واليسار. منح الشيخ بضعة قروش. وقف يساوم الحانوتي في أجره بينما حمل عاشور بقايا أقمشة النعش وحملها فوق ظهره واختفى بين المقابر. قرأت الفاتحة وبعض آيات القرآن على روح جدي ثم سرت في ذيل الطابور الصغير عائدًا إلى حارة الفهد.

جلسنا في السرادق نسترجع حكاياته الجميلة. جاءوا جميعًا بعد أن عرفوا نبأ الوفاة. نبيل أتى من الحضرة. وفتحي ومحمد عبد الحليم من محرم بك. أبلغني نبيل أنه عرف الحكاية الحقيقية لمصرع أحمد عبد العظيم. فعقب انتهاء الامتحان خرج من المدرسة وهو يعلن عن غبطته بنهاية الامتحان وهو يردد لصديقه ميشيل:

- خلاص.. علينا أن نذهب اليوم إلى سينما أمير.. صوت الموسيقى.. جولى أندروز.

وقبل أن ينهي جملته دفعته سيارة جيش ضخمة بكل قوتها وألصقته بالحائط. نزفت دماؤه ومات قبل أن يدركه المارة. لم أشأ المشاركة في الحوار. ولم أود أن أقول إن أحمد عبد العظيم أرجأ إتمام العديد من الِأشياء إلى ما بعد نهاية الامتحان، في ظهيرة يوم الخميس الثاني من يونيه أهمها أنه سيذهب إلى حنان في عملها وسيخبرها أنه أدى الامتحان على ما يرام وسينتقل إلى الدبلوم في العام القادم.

وحين ترضى عنه سيدعوها للذهاب إلى سينما أمير لمشاهدة فيلم "صوت الموسيقى" الذي أصبح حديث المدينة في الأسابيع الأخيرة. وربما يعلن لها أيضًا أنه سيعفو عني، إذا وافقت على هذه الفكرة، ويسمح لى بالنزول إلى الحارة بعد أن أحرجته أمامها أكثر من مرة.

إنها المرة الأولى التي يفكر في دعوة حنان إلى السينما. ربما لأنها أعلنت عن رغبتها في رؤيته قبل أسبوع أمام أخته زينب. قالت أن الكثيرات من زميلاتها شاهدنه أكثر من مرة، وأنها تتمنى رؤيته. أعلن أحمد أنه على استعداد لدعوتها، هي وأخته، لمشاهدة الفيلم عقب نهاية الامتحان، يوم الخميس الثانى من يونية. ليس فقط لمشاهدة "صوت الموسيقى" بل لرؤية كل الأفلام المعروضة في دور السينما، الدرجة الأولى، بالإسكندرية. مثل فيلم "عدو المرأة" في سينما ريو، و"كيف تقتل زوجتك" في سينما "ريالتو"، علقت حنان:

- لا.. "صوت الموسيقى" فقط..

أحس بالنشوة. لقد وافقت أخيرًا.. رددت:

- بشرط أن تأتي زينب معنا!

قال على مضض:

- زينب! وكل إخوتك إذ أردت..

لم أشأ أن أقول لأحد من أعضاء الشلة التي انفسخت أن حنان لم ترغب في رؤية "صوت الموسيقى" إلا بعد أن سمعتني أبدي إعجابًا بالفيلم. أخبرتها أنه أحسن فيلم في دور العرض هذه الأيام. ليس فقط لأن عرضه يستمر ثلاث ساعات، وليس لأن أغانيه بالغة الرقة والعذوبة وليس لخفة ظل الأطفال. وجذابية كريستوفر بلامر وجولي أندروز، بل لأن سينما أمير تعرض الشريط مجسمًا؛ فيخيل للمشاهد أنه يجلس وسط جنات النمسا وروابيها الخضراء، وعندما تسمع صوتًا يجيء من شخص يتحدث خارج الكادر تحس فعلًا أنه صادر من خلف ظهرك. هزت كتفيها وقالت:

- لا أحب الأفلام الأجنبية.

- لو اعتدت رؤيتها فسوف تحبينها مثلنا.

- لا أحب سوى الأفلام العربية.

وجدت أن عليَّ أن أبذل مجهودًا واضحًا في أن أجعلها تتقبل مشاهدة هذا النوع من الأفلام، فرحت أحدثها عن الكثير من تفاصيل الفيلم. وعندما رأيت عينيها تفتقدان الحماس، قلت وكأنني أنفض عن نفسي أتربة علقت بها:

- لا يمكن أحد أن يروي مثل هذه الأفلام الجميلة.. متعتها في رؤيتها.

التزمت الصمت قليلًا.. ثم سألت:

- في أي دار يعرض؟

ابتسمت وقلت: أمير.

مصت شفتيها وقالت:

- لم أدخلها من قبل. هل هي جميلة؟

أجبت: أحلى من دور العرض التي تقدم أفلامًا عربية.

فوق مقبرة أحمد عبد العظيم نبت صبار صغير وضع هناك منذ وفاة جدي. ولا توجد خضرة أخرى فوق القباب البيضاء التي تعلو المقابر. منظر يختلف تمامًا عن تلك الخضرة الداكنة التي تعمدت الكاميرا أن تصورها فوق جبال النمسا بينما وقفت ماريا الراهبة تغني لصوت الموسيقى منتشية بالحرية التي تنشدها، والهواء الذي تستنشقه. لهذا السبب غادرت الدير ورضيت بالعمل مربية لأبناء الضابط "فوق تراب". وفي قصره راحت تغير

نمط الحياة المتزمت الذي اعتاده أرمل وأب لسبعة أطفال تخصصوا في طرد المربيات اللائي يجئن تباعًا إلى المترل. حولت ماريا حياة الضابط الجافة إلى ورود مزهرة في قصره الجميل كجنة عدن التي كم حدثنا جدي عنها. إنه يرقد الآن عظامًا هشة بجوار جثة ابن أخيه القتيل. دافئة لاتزال بها نبض أخير.. ورغبة في فك الكفن وتحطيم جدران المقبرة كي تهرول إلى حارة الفهد وتجذب حنان من يدها، وتذهب بها إلى سينما أمير وتفسد نظام الطابور الطويل الواقف أمام نافذة التذاكر. ثم تشتري تذكرتين قبل أن يبدأ عرض الفيلم. لتغرق ثلاث ساعات تغني فيها وتتعلق بالكون وتنشد أغنيات الحب والحياة والأمل. وقبل أن يتمكن فون تراب وأسرته من الهرب عبر جبال النمسا تختفي جثة أحمد عبد العظيم عائدة إلى أبواب القبر وتدخل لترقد في أحضان رفات الجد الأكبر الذي كم علمنا كيف ننطق الآيات القرآنية بالطريقة الصحيحة.

مسكينة حنان. كان موعدها اليوم للذهاب إلى السينما. عرفت أنها استشارت كل من تعرفهن حول مسألة الذهاب إلى سينما أمير. جلست إلى إحدى زميلاتها في العمل تستمع منها الوصف التفصيلي لأحداث فيلم "صوت الموسيقى" لكنها أحست بالتردد حين أخبرتها زميلتها أن خطيبها، الذي اصطحبها لمشاهدة الفيلم، اصر أن يقبلها في الظلام مثلما فعل فون تراب وهو يراقص ماريا ويكتشف مدى جمالها وبساطتها. لعل حنان خافت أن يقلده أحمد أيضًا. لم تعرف ماذا يمكنها أن تفعل لو حدث ذلك. هل تتركه يفعل مثلما يحدث كثيرًا بينه وبين نعيمة؟ أم تضربه على يده كلما حاول أن يلمسها؟

وجدت نفسي أقف في نهاية صف طويل يتلقى العزاء من جديد في وفاة أحمد عبد العظيم. وقف خالي في أول الصف يرتدي نفس بنطاله الأسود الذي يذهب به إلى عمله في شركة الغزل. أما قميصه البني فقد ارتداه على عجل قبل أن تبدأ تلاوة القرآن. لا أعرف لماذا لم يرتد إحدى بزاته الأكثر أناقة إلا بعد نهاية العزاء. فبمجرد أن صافح آخر المعزين نظر إلى ساعته، وقال لحسن:

- اطمئنوا على النساء.. يجب أن تعود كل منهن إلى بيتها..

همس في أذني أن أصعد وأحضر له البطارية من درج دولابه. فوجئت بكل هذا العدد من النساء المتشحات بالسواد يلتصقن في الغرفة الضيقة. وضع أغلبهن الأيدي على الخدود. لمحت أمي تهز أسها وتتمتم ببعض الآيات التي تحفظها عن ظهر قلب. حاولت أن أجد لقدمي مكانًا كي أصل إلى الدولاب. فجأة رأيت حنان منكمشة في ركن من الغرفة. شعرت بالارتباك وتسمرت مكاني.

هالني وجهها الأبيض المدفون داخل غلالة من الحزن الأسود الكئيب. تحاشيت أن أنظر إليها مرة أخرى. وشقت قدماي مكانًا لها حتى بلغت الدولاب الذي تستند عليه إحدى المتشحات بملابس العزاء. فتحت الدولاب وأخرجت البطارية. أحسست وأنا أمسكها بملمس أحمد عبد العظيم فوق معدنه اللامع. فقد كان هو الذي يحضرها لأبيه كلما ذهب إلى العمل. سألت خالي وأنا أمدها له:

- هل ستذهب حقًا إلى وردية الليل في الشركة؟

رد ببساطة:

- طبعًا..

سألته: الليلة؟

وهو يضع البطارية في جيبه رد:

- أريد أن أنام قليلًا.

عندما رأيته يعود، صباح اليوم التالي، من العمل، لم أتعمد النظر إلى عينيه لأرى هل استطاع النوم أم لا.. بدا كأنه لم يفقد شيئًا من حيويته. وقف يرقبني وأنا أدق مسمارًا ضخمًا في الحائط كي أعلق قماش السرادق النهاري. قال:

- أنا.. سوف أفعل ذلك بنفسي..

تظاهرت أنني تمكنت من دق المسمار الذي ما لبث أن انخلع بين أصابعي. صعد درجات السلم الخشبي وأمسك المطرقة وأخذ يدق بهدوء شديد. دققت في وجهه الجامد ذي الأنف الضخم المليء بالثقوب في جلده. حاولت أن أقارن بين ملامحه وملامح ابنه فلم أتمكن. فأحمد أكثر بياضًا وشاربه أضخم. كما أن ابنه أخف ظلًا وأكثر أناقة. جمعه مع أبيه حب غريب للنساء البيضاوات. فهذا الرجل يظل يفخر طوال الأشهر الماضية أن ليلة واحدة يقضيها مع أي امرأة كفيلة أن تجعلها تحمل منه توأمين جميلين

مثل البنتين الصغيرتين اللتين رزق بهما في العام الماضي. منذ ذلك الحين وهو ينشر حواديته عن قوته الجنسية في مقهى شارع النيل. أخبرتني أمي أن أخاها اصابته الغمة عقب وفاة التوأمين، وأنه تمنى أن تعيشا لأنهما رمز لما يتمتع به من قوة. لم أحس بأى غمة في وجه خالي وهو يدق المسمار ويربط الحبل بشد ثم يسلمني المطرقة وينزل، كي يفعل نفس الشيء على الناحية الأخرى.

وبينما أمد له يدي بالمسمار، رأيت حنان بملابسها السوداء، تخرج من باب منزلها مع زميلتيها إيمان ومنيرة كي يذهبن إلى العمل. بدت أكثر إشراقًا من تلك التي رأيتها بالأمس مدفونة في زى الحداد. التقت عينانا لحظة تبادلنا خلالها العزاء، ثم اتجهت لناحية شارع النيل بينما بدأنا نفرش الأرض بالكراسي، ونضع منضدة الأريكة الكبيرة فوق الرصيف. وفوقها أسندنا مسندين كبيرين نحو الحائط من أجل الشيخ الذي جاء مبكرًا عن موعده. جلس بين النساء يحدثهن عن الحياة والموت. قاطعه خالي قائلًا:

- نريد صوتك أن "يلعلع" في الحارة بدون ميكروفون..

وانتابتني الرغبة في الضحك..

مر اليوم هادئًا في حارة الفهد. حتى الصغار الذين يعبثون ببقايا الرمال بدوا مشدوهين وكأن لعبهم أيضًا من المراسيم اللازمة. قبل صلاة الظهر كانت النسوة قد عدن إلى ديارهن. واستعد خالي، كعادته، للذهاب

لأداء شعائر الجمعة. عرفت أنه مر على مقبرة ابنه ورش أحجارها البيضاء بالمياه. وقرأ الفاتحة على أرواح موتى أسرتنا وموتى المسلمين. بدت نساء المترل رقم 27 في حالة سكينة فلا يمكنهن أن يفعلن أكثر مما فعلن بالأمس. بحت أصوات بعضهن. وارتخت أوتار البعض الآخر. تمددت أمي فوق أريكتها الصغيرة ثم راحت في نعاس طويل. توقعت أن ترى ابن أخيها في أحلامها التي كثيرًا ما تقص لنا وقائعها عقب استيقاظها. قالـــت، منذ أيام، أن أمها جاءها وأرادت أن تأخذ قطعة من ملابسها لكنها استحلفتها أن تتركها لها.. اطمأنت أن أمها لن تأخذ واحدًا من أبنائها الخمسة. لكنها بدت جزعة وتمتمت ببعض آيات القرآن صباح يوم الخميس، وانشغلت بتجهيز الفطور ثم أطلت من الشرفة وتبادلت الشتائم مع لوزة ثم رأت الرجل الذي جاء يخبرنا أن أحمد عبد العظيم قد أصابته حالة إغماء. سمعتها اليوم تردد في "الصبحة" أن أمها جاءها في المنام وأخذت أحلى رداء. فتحت الدولاب بنفسها وأخذت تنتقي. ثم اختارت بدلة أنيقة جديدة لم يمسها أحد، بدلة تليق بالأعياد. أخبرها أن لديها شخص وسيم يريد أن يلبسها بعض الوقت. لا. بل كل الوقت. ثم ذهبت دون أن تستجيب لتوسلاها. ودون أن تعدها بإعادة البدلة.

صعد أخي حسن وأيقظ أمي من نومها وراح يحدثها بعض الوقت ثم نزل مرة أخرى إلى شقته. وجدت أصابع تتسلل إلى مجلة قديمة. وبدأت أقرأ مقالًا عن مارلين. وآثرت أن أخرج إلى شوارع محطة الرمل، طالعت أفيشات الأفلام في سينما مترو وريالتو وفريال. وتحاشيت أن أمر بجوار سينما أمير. فقد توقعت أن أراه واقفًا هناك بجوار حنان يحدثها عن "صوت

الموسيقى" وتأكدت أنه عندما سيراني سيطاردني ويضربني فوق رأسي. تخيلت حنان تضحك ساخرة مني وهي تراه يضربني. ثم ستحاول أن تصد لكماته وتطلب منه أن يدعوني لرؤية الفيلم معهما. آثرت ألا أعكر عليهما صفو مشاهدة الفيلم. وتمنيت لو طلبت منهما أن يشاهدا الفيلم في حلة صباحية حتى يشعرا أكثر بالمتعة. تمتم لساني بأغنية "صوت الموسيقى" وزحفت قدماي بين شوارع العطارين وتحاشيت أن أمشي إلى جوار سور المقابر الذي يلفني كلما عدت من نزهتي المسائية إلى محطة الرمل.

عدت إلى المترل أتدثر بالغلالة السوداء التي ظللت المترل، وسبحت داخل هدوء متأجج يخيم فوق الرؤوس. علمت أن خالي لم يحرم نفسه من الجلوس في مكانه المعتاد على المقهى، وأنه لم يمانع في الاشتراك في مباراة نرد لم يتمكن فيها، كعادته، من إلحاق الهزيمة بمنافسه. فردد:

- الظاهر أن موت الولد أربكني.

أردت أن أسأل أمي عن جحود أخيها، فاكتشفت أنني، حتى الآن، لم أذرف دمعة واحدة على وفاة أحمد عبد العظيم بل لم أقطع عاداتي في التزهات المسائية، والنظر من النافذة، والوقوف عند الناصية.

عاد خالي، صباح الأحد، من مدرسة التجارة القديمة بشارع الرصافة، وهو يحمل مظروفًا صغيرًا به شهادة ميلاد ابنه، واستمارة الإعدادية التي عانى أحمد كثيرًا من أجل الحصول عليها، وأوراقًا أخرى لفها

بين أصابعه، وما أن دخل شقته حتى دسها أسفل مسند الأريكة، وقال لزوجته وهو يخلع الحذاء:

- ظهرت النتيجة.. الولد نجح..

كتمت امرأة دمعة ساخنة داخل مآقيها. ثم أسرعت إلى الحمام وذرفتها بحرقة. بينما استكمل خالي خلع ملابسه. وعندما دخلت أخته العائدة من سوق "البياصة" حاملة بعض الخضراوات عاجلها قائلًا:

- أحمد نجح يا عائشة.

ألقت أمي بالحقيبة القماشية التي تحملها، وسألته بسذاجة:

- نجح.. هل ظهرت النتيجة؟

هز رأسه في أسى وقال:

- نجح.. المفروض أنه سيدخل الدبلوم.. الولد نجح يا عائشة..

لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من النحيب بصوت عال. سمعت تنهيداها وأنا جالس في غرفتي العلوية. سمعت صوت خالي يكرر عبارته عن نجاح ابنه. لم أشأ الترول للمشاركة في هذا المشهد، وآثرت أن أستمع إليه عن بعد وصوت خالي يعلو وينخفض:

- الولد نجح.. يا عائشة..

إنها المرة الأولى التي أحس فيها بافتقاده. فكم تخاصم الرجل وابنه من أجل الحصول على الدبلوم. وكم عايره بمن هو أصغر منه الذين استطاعوا دخول الثانوي العام. سمعته يومًا يشير إلىّ ويقول:

- إنه أصغر منك بثلاث سنوات. في العام القادم سيكون في الثانوية العامة. سيدخل الجامعة مثل نبيل ومحمد عبد الحليم..

أخبرتنا أمي ساعة الغذاء أن أخاها رتب دولاب ابنه، وأخرج كتبه ونظمها، وأخرج ملابسه كي تغسلها زوجته. وددت أن أسألها عن المظروف الكبير الذي يحفظ فيه رسائل البنات. ترى هل عثر عليه خالي. وماذا فعل. لقد سبق أن مزق له كل الرسائل التي عثر عليها داخل درج مكتبه. ضربه على رأسه وقال:

- حب ونيلة..

أردت أن أسال خالي عن الخطاب المكتوب بيد حنان تعلن فيه عن حبها العميق لأحمد عبد العظيم والذي أقسم بأغلظ الأيمان أن الفتاة كتبته له وهي في أشد حالات الهيام. كشف لى خطابًا ذات يوم، من مظروفه الخارجي، وسألني:

- خط من هذا؟

- لا أعرف..

- حبيبة الهيمان.. يا روح أمك..

- هي..؟

- طبعًا..

طلبت منه أن يعطيني الرسالة، أو يريني إياها لوَّح لي بها من بعيد. روَّعني اسمه مكتوبًا بخط كبير. لو أمكنني الحصول على مظروف الرسائل لميزت هذا الخطاب بسهولة.

عندما صعدت زوجة خالي كي تنشر الغسيل على السطح، أردت أن أسألها عن الأوراق التي قام خالي بترتيبها. رأيتها متشحة بالسواد وقد ابتل ساعداها من بقايا الغسيل. سمعت أمي تطلب منها أن تترك الطشت وأنها سوف تقوم بنشر الغسيل بدلًا منها. بعد إلحاح تركت المرأة الطشت ونزلت. وعلى الفور شمرت أمي ساعديها، وبدأت في نشر الملابس، القطعة وراء الأخرى. تضع الملابس البيضاء في طرف الحبل العلوي، أما الملابس الملونة فشبكتها في الحبال الوسطى. جلست أرقبها وأنا في غرفتي.

اكتشفت أن كل الأشياء المبلولة المعلقة فوق الحبال تخص أحمد عبد العظيم. ملابسه المزركشة التي كم تباهى بها أمامنا وهو يعود بها من حانوت سميح "المكوجي". أو حين يرتديها أمام حنان أو نعيمة. على طرف الحبل انتثرت ملابسه الداخلية. مجموعة كبيرة من الفانلات والسراويل القطنية، وبنطاله الأسود ومناديله التي كان يضع بعضها في جيب سترته، ثم جواربه: وأيضًا بلوفراته التي يرتديها في الشتاء. فجأة هبت نسمة خفيفة حركت

الحبال. تساقطت نقاط المياه فوق الأرض. كأنها الدموع تنحدر بين نسيج الأقمشة. اهتزت الحبال مرة أخرى فأحسست بمجهول يتسرب في شراييني. تسمرت عيناي فوق الحبال، وتلوت أمعائي داخل تجويف بطني.. وأسرعت إلى أحد البلوفرات واحضتنته. بللت وجهي بمياهه.. وضممته فوق أنفي أشم رائحته. أحسست أنهم أذابوا عرق أحمد عبد العظيم في هذه الملابس. فجأة انطلقت من عيني دمعتان ساخنتان كرصاصة من مسدس جيمس بوند. امتزجت الدموع بالبلوفر المبلل ثم سقطت فوق الأرض. اندفعت دمعة أخرى ساخنة سرعان ما أثارت الدفء في البلوفر. أخذت أمسح به وجهي وأنا أجهش بصوت خفيض. زاد سيل الدموع من عيني، وارتفع صوت النحيب.. وتذكرت أنني أبكي للمرة الأولى منذ وفاة أحمد عبد العظيم.

السنة السابعة

> سامحها الله..
>
> دفعتني أن أتحلل من نجسي في بيت غريب عني.. لم يكن يمكن مغادرة المترل وقد امتلأ جسدي بالنجاسة. كان يجب أن أخلع ملابسي وأبلل جسدي بالمياه. لم أشأ أن أستخدم السخان خوفًا أن ينفجر في وجهي مثلما حدث لنور الدمرداش في فيلم "أعز الحبايب"..

إنها المرة الأولى التي اغتسل فيها من نجسي بعيدًا عن العادة السرية.. يعتريني الندم لعدة أسباب.. منها أنني اغتسلت في الحمام الذي تملكه والدة زميلي عادل وجيه في شقتها الواسعة، لكن آثار شفتيها لا تزال عالقة بفمي.. نشوة لا يمكن لأحد أن يعرف لذها سوى من تذوقها. مهلبية، ملبن، سكر، معقود. عصيدة. لا. بل أجمل! شيء آخر لم أكن أتصوره. هاتان الشفتان تلتصقان بشفتي. أشعر بلعاها يبلل شفرتي فمي وتلتصق شفتاها بي.

يا إلهي. لم أتصور أن القبلة لها كل هذه المتعة. لقد رأيت الكثير من الممثلين يقبلون البطلات على الشاشة، وسمعت الحكايات الكثيرة عن القبلات. لكن أبدًا.. إلا طعم هذه القبلة.

لو كنت أعرف لصادقت عادل وجيه منذ أمد طويل، ولزرته مرات عديدة في بيت والدته كي أقبل خادمتها. لهذا تململت عندما أخبر أمه أنه سوف يذهب اليوم إلى منزلي لاستكمال المذاكرة. كدت أطلب منه أن نبقى هنا ليلة أو ليلتين. لعله يعرف أن الفتاة جاءتني في غرفته قبيل الفجر بقليل. لذا ترك لي الغرفة، وقال إنه سينام في غرفة أمه بعد أن سافر زوجها بالأمس إلى سيناء. عندما ضغطت الجرس فتحت أمه الباب.. بدت جميلة المحيا كما رأيتها أول مرة. على عينيها بدت آثار دموع تساقطت قبل قليل.

اصطبغ وجهها الأبيض بلون الدم. حاولت أن تبتسم. وقال بحمية أقل مما اعتدته منها:

- عادل سيأتي حالًا.. انتظره في غرفته. إنه يرافق الأستاذ "عاصم" إلى المحطة.

عندما دخلت ناهد غرفتي حاملة صينية عليها زجاجة سباتس سألتها:

- خير.. ماذا حدث؟

ردت وهي تضع الصينية فوق المائدة الصغيرة:

- الأستاذ عاصم سافر إلى سيناء.. يقولون إن الحرب قائمة لا محالة.

حاولت أن أبدي أسفي. ثم سألتها:

- هل سيتأخر عادل؟

ردت: المحطة غير بعيدة. هذا يتوقف على ميعاد القطار.

خرجت إلى سيدتها. عادت بعد قليل لتجدني قد رميت مياه الاسباتس كلها في جوفي. قالت:

- هنيئًا..

قلت وأنا أرفع عيني من الكتاب الذي أتظاهر بقراءته:

- شكرًا.. هل لا تزال تبكي؟

ردت ناهد: ستكون ليلتها نكدًا بطوله.. وأنا أيضًا سيكون ليلي نكدًا. بيت غريب. لم أعرف السعادة فيه يومًا.. كل أفراده مصابون بالعقد..

ثم جلست على الأريكة المقابلة:

- هل تعرف.. كنت، فيما قبل، أعمل في بيت لا يكف أصحابه عن الضحك والفرفشة.. رقص.. غناء.. نكات. لم أحس يومًا أنني خادمة.. نكات.. آه.. أى نكات.. هل ألقي لك بواحدة؟

وافترشت نفسها براحة أكثر على الأريكة وبدأت في إلقاء نكتة عن جمال عبدالناصر.

زممت شفتي وقلت لها:

- الله يخرب بيتك. للحيطان آذان..

قالت وهي تتصرف بتلقائية أكثر:

- هل تخاف؟.. إذن اسمع هذه..

روت نكتة أخرى عن عبد الحكيم عامر الذي ركب طائرة مع عبد الناصر وسأل كل منهما الآخر عن الأشياء التي تسعد الناس. قال عبد الناصر: أرمي للناس بتصريحات سياسية مليئة بالأمل. فقال عبد الحكيم أنه سيرمي أوراق بنكنوت كثيرة.. لكن الطيار تدخل قائلًا أن الناس سيكونون سعداء لو ألقاهما من نافذة الطائرة كي يرتاح الشعب. شعرت بالجزع وكررت عليها:

– الله يخرب بيتك. للحيطان آذان.

ضحكت بصوت خفيض، وقالت:

- إذن اسمع هذه.

بدأت تروي وقائع نكتة خفيفة الظل لكنني شممت فيها رائحة غريبة جعلتني أتنبه وأوليها أذني. بل طالبت بواحدة إضافية. انفردت أكثر

فوق الأريكة وهي تمثل وتتصرف على سجيتها. روت نكتة أخرى أشد تاثيرًا. عندما انتهت من النكتة الخامسة كنت في قمة الإحساس بالتهيج فتركت الكتاب وجلست إلى جوارها.

سألتها:

- ألا تسمعك سيدتك؟

ردت: إنها مهمومة بزوجها الذي سافر..

ثم ألقت النكتة السادسة. وجدت وجهي يقترب منها كي أستمع اكثر. أولتني وجهها الذي بدا لي جميلًا. تلمع بشرتها أسفل الضوء الأبيض الذي يبثه مصباح النيون. وجدت شفتي تقتربان من شفتيها مثلما يفعل رشدي أباظة. وعلى طريقته التي جذبتني كثيراً لعقت شفتي بشفتيها. وضعت يدها على رأسها وأنا أطبق عليها. أشعر بأنفاسها تلفح وجهي فأغمر شفتي بفمها المرتعش. شعور غريب ينتابني. ولذة أجمل مائة مرة من ممارسة العادة السرية التي ألهبت يدي. أحسست أن الزمن يمتد طوله وعرضه. وأن المسافات تنفسح أمامي، أغلقت عيني وأنا أهرول في واد أخضر وأسبح في نهر العسل الذي أخبرتني أمي أنه أحد أنهار الجنة الموعودة.

أبعدت وجهها إلى الخلف، حاولت أن أجذبها مرة أخرى فهمست:

- سيدتي!

قلت وأنا ألهث..

- إنها تبكي من أجل زوجها الذي سافر.

هبت من مكانها، وقالت وهي تخرج:

- سوف أعود إليك..

وسرعان ما عادت. بدوت كمن شرب عشرين ألف زجاجة خمر، وعطر جسدها ورأسها بسبعين ألف زجاجة عطر. قلت:

- أنت مهيجة.. تعالي..

جاءت. أغمضت عيني مرة أخرى، وزحفت شفتي بسرعة إلى شفتيها. وجدتها تفتح فمها، فلم أفهم لماذا تفعل ذلك. تعمدت أن أضم شفتي وأنا اقبلها. امتلأت الغرفة بالسراج المنير، وراحت تضغط على رأسي. أبعدت وجهها وقالت:

- انتظر.. لقد جاء عادل.

انتفضت مرة أخرى من مكانها.. وهرولت خارج الغرفة. سمعتها تفتح الباب.. جاءني صوت عادل الذي دخل لفوره إلى حجرة أمه.. غاب هناك بعض الوقت قبل أن يأتي ليحييني، ويجدني أقل ارتباكًا مما لو قد دخل عليّ فور عودته. حياني، وقال:

- الموقف خطير في سيناء.

لم أنتبه كثيرًا لما قال. حاولت أن أبدو طبيعيًا. جلس أمامي وبدا مرتبكًا مثلي. قال:

- أمي في حالة نفسية بالغة السوء.

حاولت أن أجاريه فقلت:

- لماذا؟

رد: أخبرتك أن الموقف خطير على الجبهة. ربما تقوم الحرب بيننا وبين إسرائيل خلال ساعات.

- هل تصدق هذا؟ إنها مناورات. ولو حدث ذلك فسوف يأكلهم عبد الناصر في ساعة واحدة.. سوف نلقيهم في البحر..

- ليس هذا هو المهم! المهم أمي..

- ألن تذاكر؟ بقيت أربعة أيام على الامتحان.

- ليس لهذا علاقة بالمذاكرة. لا أريد لأمي أن تكون حزينة. هذا يؤثر على صحتها كثيرًا.

لم أفهم ما يقصده. عندما أخبرته أنني يمكنني العودة إلى منزلي كي أذاكر وحدي، قال:

- أريدك أن تبقى معنا اليوم. فأمي تريدنا أن نذاكر. ولو ذهبت لفهمت أن الليلة ستضيع بلا فائدة.

نادى ناهد، وسألها أن تعد لنا العشاء. حاولت أن أفهمه أنني لست جوعانًا، إلا أن ناهد دخلت بعد قليل حاملة صينية بها الشطائر والفاكهة والمرطبات. شيء لم أعتده في منزلنا. ربما لهذا أفضل الحضور هنا، أخبرني عادل منذ أسبوعين أن زوج أمه انتقل إلى سيناء بعد حشود القوات الإسرائيلية على الحدود. وقال إنه سيترك جدته كي يقيم مع أمه أثناء غياب زوجها الذي رجع بالأمس، لبضع ساعات قبل أن يعود إلى سيناء. بدا عادل وجيه شخصًا يختلف عن الذي أعرفه في فصل ثالثة ثامن بمدرسة العباسية الثانوية. ودور السينما المتناثرة في محطة الرمل. يبدو في منزل أمه مخلوقًا مطيعًا ورقيقًا كأنه مسئول عن إدارة هذا البيت الفخم في غياب صاحبه. لم يرض أن نتبارى في أسماء الأفلام مثلما نفعل حين يأتي للمذاكرة في غرفتي الصغيرة. بل بدأ يباريني في حل مسائل الميكانيكا والهندسة الفراغية، وفي استنباط معادلات صناعة الحديد الزهر ونظريات انكسار الضوء ورجع الصدى.

انسحب عادل في غرفته في الثانية صباحًا وذهب إلى غرفة أمه.. جلست أنتظر ناهد كي تكمل رواية نكاتها الجنسية. طرقت باب الغرفة بحذر ثم أطلت برأسها. سألتني:

- هل انتهيت من المذاكرة؟

تلعثمت وأنا أهز رأسي وقلبي يدق بشدة. احتميت بالكتاب الذي أمسكه بينما سألتني من جديد:

- هل أعد لك كوب شاي..؟

هززت رأسي يمينًا ويسارًا، وأشرت لها أن تدخل، ثم سألتها:

- هل ناما؟

ردت همسًا: طبعًا..

- وعادل؟

وجدت أناملي تمسك كتفيها وأطفأت ضوء الأباجورة الصغيرة.

تعمدت أن أدخل الحمام في الخامسة صباحًا، قبل أن يستيقظ أحمد. حتى ناهد التي راحت في نوم عميق بعد أن منحتني أولى القبلات التي تناولتها في حياتي، بل ومنحتني شرف لمس صدرها اللدن. ولمس بقع أخرى من جسدها. وحرمت علي أماكن أخرى. انسحبت من الغرفة بينما ارتكنت في مرقدي أسترجع كل ما دار بيننا. في الحمام خلعت ملابسي، وملأت كوبًا صغيرًا بالماء، وبدأت أصبه فوق رأسي بحذر شديد حتى لا يسمع أحد صوت المياه فيعرف أنني ارتكبت الفحشاء. سرعان ما ارتديت ملابسي وبدأت أمسح بقايا المياه التي سقطت فوق الأرض بالمنشفة. وعدت مرة أخرى إلى غرفة عادل بعد أن استبحت لنفسي ثمرة خوخ

رأيتها في طبق بالصالة. شعرت بالراحة وأنا أقضم الثمرة، ولم أحس إلا بعادل يدفعني برفق أن أستيقظ.. قال هامسًا:

- هل نمت جيدًا؟

ارتبكت وفهمت سؤاله بعدة معان.. فعاجلته:

- هل نمت أنت جيدًا؟

قال: الساعة الآن الثامنة والنصف. علينا أن نلحق السينما. حتى لا يفوتنا بداية الفيلم.

وبعد قليل كان ترام الرمل يقذفنا في ميدان المحطة الرمل متجهين إلى سينما مترو. وقفنا نتأمل أفيش فيلم "ذهب مع الريح" بعد أن تم تلوينه. إنه، كما يقال، أعظم فيلم في تاريخ السينما. فيلم قديم هز مشاعر الناس طوال ثلاثين عامًا. أعجبتني الرواية حين قرأتها في العام الماضي. لكن يقال إن الفيلم أروع من القصة بكثير.

دفعت لعادل عشرة قروش فقام بشراء تذكرتين ودخلنا بهما الصالة. تعمد أن نجلس في الصفوف الأولى بعيدًا عن الضوضاء. حاولت أن أقرأ في عينيه، وهو يتكلم، إن كان قد فهم شيئًا مما حدث في فراشه. لكنني لم أتمكن، أردت أن أعرفه هل روت له نفس النكات، وهل جاءت تعد له الشاي بعد منتصف الليل فلم أجد وسيلة لطرح السؤال. بدا كأنه نسي أحزان أمه. وراح يتكلم عن الأفلام المولع بها مثلي. أفلام رأيناها، وأخرى لم نرها. عندما انطفأت الأنوار وبدأت إشارة الأفلام القادمة في العرض أخذ

يتحدث عن كل منها وكأنه شاهدها أثناء تنفيذها في البلاتوهات. ثم ظهرت "سكارليت أوهارا". ليست امرأة جميلة. ولكنها ذكية وقوية الشخصية. وتجيد امتلاك الآخرين. وعلى رأسهم آشلي الذي ركعت أمامه من أجل أن يحبها عشرات المرات دون أن يستجيب لها مرة واحدة. امرأة يمكنها أن تحب رجلًا واحدًا من أعماق قلبها. لكنه لا يمكن أبدًا أن يحبها. إنها تختلف كثيرًا عن "لي ريميك، وآن مرجريت وفاتن حمامة، وجولي أندروز". حتى علاقتها بذلك الأفاق ريت بتلر قامت على المصلحة والجذب والشد. هو رجل يشبهها. يتركها مع "ميلاني" وسط الطريق ويذهب بعد أن أنقذهما من الدمار والحريق. دائمًا يتركها ليذهب لحاله. جاءته في السجن تطلب منه معونة بحجة أنها إحدى قريباته. عندما علم أنها لا تزال تحب "آشلي" هجر البيت مع ابنته. وذهب في النهاية مع الريح. يا له من رجل! حوَّلته التجربة إلى إنسان أكثر رقة. خاصة فيما يتعلق بعلاقته بابنته التي ماتت بين يديه. حبس نفسه مع ابنته في غرفته المظلمة ولم يوافق أن يتم دفنها إلا بعد أن دخلت إليه "ميلاني" تستعطفه أن يفعل.

حكايات عديدة تعرض وقائعها طوال ثلاث ساعات عن الحب والحرب والنذالة والشرف والخسة والفضيلة. تزوجت "سكارليت" من أربعة رجال ليس من بينهم حبيبها الذي تعشقه وتتمناه لنفسها دون رجال الأرض. راقصت رجلًا في حفل عام وهي أرملة فقدت زوجها قبل أيام قليلة فأدهشت الحاضرين وأصابت مربيتها بالإغماء. وفي مرة أخرى أباحت لنفسها أن تخطف خطيب أختها وتتزوجه. وعندما مات لم تعلق بشيء.. تساءلت عن أحوال "آشلي". وافقت أن تتزوج "بتلر" بعد أن

ذاقت طعم شفتيه. قبلها بحرارة لم تذقها من قبل. سألها: هل تتزوجينني؟ فهزت رأسها الذي امتلأ بالنشوة. سرت في كل كيانها فأسكرتها مثلما حدث لي قبل ساعات مع ناهد.. همس عادل قائلًا: هذه القبلة هي أشهر واحدة من نوعها في تاريخ السينما. كدت أخبره أن فيفيان لى كتبت في مذكراتها أنها أسوأ قبلة في الدنيا فقد كانت رائحة كريهة تفوح من فم كلارك جيبل، لم أشعر بأي رائحة تنبعث من شفتي ناهد وهي تلعق فمي. شيء ما هز وجداني وأنا أرى "سكارليت" تقبض على طين أرض بلدتها تارا وتقسم أن تعيد إليها مرة أخرى الرجل الذي أحبته وعذبته. تحركت الكاميرا من جديد لتكشف لنا جمال الغروب في تارا مدينة الجنوب الأمريكي.

لم أستطع أن أغادر مقعدي بعد أن أضيئت أنوار السينما.

سألت عادل:

- ما رأيك؟

أحسست بنفس المشاعر التي أحدثتها فيَّ قبلات ناهد وملمس صدرها. ولم أستطع الإجابة. فرد نيابة عني:

- رائع. أليس كذلك؟

قلت: وأنا أتكيء على المقعد واقفًا.

- لا يوجد أروع من هذا.

عندما لفظتنا السينما إلى الشارع لاحظت شيئًا غريبًا في شارع صفية زغلول. فالمحلات أغلقت أبوابها، وقل عدد المارة، والتهبت الحرارة بشكل ملحوظ. لا يزال "كلارك جيبل" ماثلًا أمام عيني. ولا تزال شفتا ناهد فوق فمي. راح عادل يتحدث عن المجهود الخارق الذي تم لتكوين الفيلم. توقف فجأة عن الكلام وقال:

- هناك شيء ما في الشارع..

قلت: لعل جيشنا دخل إسرائيل.

رأينا شلة من الأشخاص يقفون بجوار حانوت صغير وهم يستمعون إلى الراديو.. اقتربنا بخطى متعجلة. امتلأ صوت المذيع بالحماس. أما صاحب الراديو فقد أطلق كل ما بجهازه من طاقة وقد علت تباشير السعادة على وجهه وهو يضع أذنه اليسرى فوق سماعة الراديو كأنه يرتشف من صوت المذيع المليء بالحمية. سألت:

- ماذا جرى؟

قال رجل بدين يقف بجواري ويستمع بانتباه شديد:

- إسرائيل هجمت على مصر وسوريا والأردن..

المذيع يكمل: أعلن الرئيس الفرنسي شارل ديجول عن حظر تصدير أسلحة فرنسية إلى إسرائيل، وعن عدم إتمام صفقة الميراج.

هللت:

- يا له من خبر.. أرأيت مدى ذكاء عبد الناصر.. لم يود أن يبدأ بالهجوم لأن ديجول حذر الدولة التي ستبدأ بالاعتداء.

قال صاحب الراديو:

- أسقطنا لهم اثنين وخمسين طائرة.

قلت بنفس الحماس:

- طبعًا. وربما أكثر.

بدا عادل وجيه واجمًا. تذكرت زوج أمه. لم أسأله ما به، ولكنني قلت:

- سوف نرميهم في البحر.

ردد البدين:

- سيسافر عبد الناصر إلى تل أبيب في المساء لإعلان حكومة فلسطين.

قال عادل:

- يجب أن أذهب. أمي الآن قلقة، وعليَّ أن أكون بجانبها.

ولم ينتظر مني إجابة. هرول حاملًا كتبه ناحية محطة الرمل كي يعود إلى أمه. بينما وقفت أتابع النشوة وعرفت أن إسرائيل اعتدت على مصر وسوريا والأردن في الساعة التاسعة صباحًا وأن قواتنا الجوية والمدفعية أسقطت عشرات الطائرات. قال صاحب الراديو:

- اثنتان وسبعون طائرة.

بدأت أرقام الطائرات الإسرائيلية المتساقطة في الارتفاع، وأنا في طريقي إلى المترل، أصوات أجهزة الراديو تعلو من المحلات والبيوت. وتمر عربة صغيرة بها مكبر صوت يذيع على الناس آخر نشرات الأخبار. يعلن صوت جلال معوض المهيب بين لحظة وأخرى البيان الجديد للقوات المسلحة. سماء الإسكندرية صامتة وساخنة. يبدو الناس كأنهم مصابون بغيبوبة. الفرحة في الوجوه لكن هناك شيئًا ما لا يمكن قراءته. فالبلد في حالة حرب. بعد انتظار بدأ منذ الثاني عشر من مايو الماضي سوف نطرد إسرائيل من المنطقة، ونتوج الانتصارات التي حققناها في الفترة الأخيرة: السد العالى، حرب اليمن، والقوانين الاشتراكية.

في شارع ابن الخطاب وقفت أستمع إلى آخر الأخبار المذاعة من راديو أحد المحلات، ازدحم الناس حول المذياع. ردد المذيع بصوت مهيب: "سيداتي وسادتي. جاءنا الآن النبأ التالي: "قرر السيد وزير التربية والتعليم تأجيل امتحانات الثانوية العامة التي كان من المفروض أن تبدأ السبت القادم إلى أجل غير مسمى. كما تقرر...." رددت قائلًا لشخص يقف بجواري:

- أحسن!

أعرف أن عادل وجيه سيسعده هذا الخبر. لعله وصل الآن إلى منزل أمه وبدأ في التسرية عنها، قبل أن أتحرك من مكاني راح المذيع يكمل: "كما قرر السيد وزير الثقافة إغلاق جميع دور السينما والمسارح وبيوت الثقافة اعتبارًا من الساعة.. وذلك لدواعي الأمن".

شعرت بانقباض زادت نسبته حين انطلق من أعلى مباني المدينة صوت أجهزة الإنذار يعلن عن بدء غارة. صوت مرعب يثير في الأعصاب توترًا. لم أسمع مثل هذه الزمارة تنطلق منذ أحد عشر عامًا. حين دفعتنا الحرب أن نهرب من الإسكندرية ونقيم بضعة اسابيع في أبو حمص. شعرت بجزع وأنا أتصور أمي تلف بعض أشياء المنزل ثم ننحشر جميعًا في قطار مزدحم يدفعنا من جديد إلى إحدى القرى بحثًا عن مكان أكثر أمنًا. لعنت الحرب والطائرات والعدد الذي يرتفع، كل لحظة، من طائرات العدو المتساقطة لأنها أفسدت عليّ متعة الرغبة في رؤية "ذهب مع الريح" مرة أخرى.

فتح حسن باب الشقة. يقف، كعادته، بسرواله وفانلته. يبدو متوترًا وهو يستمع إلى نشرة الثانية والنصف المشحونة بالأخبار المهمة حول العدو الذي اعتدى على بلادنا بشكل سافر لكن قواتنا تصدت له ولقنته درسًا لا ينسى. فأسقطت له العشرات من الطائرات، وعن جنودنا البواسل الذين يجتازون الآن حدود إسرائيل وسيصلون عاصمتها في أقرب وقت. تحدث المذيع بنفس الحماس عن مواقف التأييد العربية من السعودية

والجزائر وليبيا وتونس والكويت. عن بسالة القوات السورية التي لقنت طائرات العدو درسًا لن ينساه. وأنها الآن في طريقها لقلب إسرائيل من الجهة الشمالية.

انطلق المارش العسكري من المذياع عقب النشرة وأنا لا أزال في شقة حسن. جاءنا صوت أمي، من أعلى، يسأل عن الأخبار:

- هل سنهاجر؟

ضحك أخي وقال يطمئنها:

- لا.. المسألة لا تعدو ساعات وينتهي كل شيء.

رددت أمي بحماس:

- لسنا قد الإنجليز.

رد أخي ضاحكًا:

- الإنجليز هذه المرة ضد إسرائيل. وأيضًا الفرنسيون. فإسرائيل بدأت الحرب.

توقف أخي عن الحديث عندما سمع المذيع يقول: "إليكم الآن التعليق على الأنباء" أشار إليّ حسن:

- أحيانًا، يكون التعليق أهم من النشرة.

لم أفهم مقصده. حاولت أن أجد في التعليق ما يؤكد كلام أخي. فكان حديثًا مكررًا لما جاء في النشرة. أكد المذيع مرة أخرى أن عمر إسرائيل قصير بعد الكماشة التي صنعتها مصر والأردن وسوريا.

صعدت إلى غرفتي الصغيرة. رقصت وأنا أقول لأمي:

- أجلوا الامتحانات. فلتستمر الحرب ألف سنة.

لم تعرني أمي انتباها. راحت تنظر بعينيها الراداريتين نحو السماء علها تلتقط طائرة تقترب من الإسكندرية تريد أن تدك بيتنا.

قلت لها:

- أجلوا امتحانات الثانوية.

أولتني وجهها ورددت:

- خوفي أن يعود الإنجليز.

- يا سيدتي.. الحرب هذه المرة بيننا وبين إسرائيل. الصهاينة احتلوا فلسطين زرعتهم القوى الرجعية من أجل تفتيت الوحدة العربية التي يتزعمها عبد الناصر.

رفعت يدها إلى السماء وقالت:

- ربنا يحميه.. وينصره.

هنا سمعنا أخي يقول وهو واقف عند شقته:

- أسقطوا طائرات أخرى. خمس طائرات عند بورسعيد.

سألته: هل سمعتهم يعلنون خبر تأجيل الامتحانات؟

قال بصوت ملأ ردهة المترل:

- أجل! لكنه لن يؤجل كثيرًا. ثلاثة أيام على أكثر تقدير..

ثم دخل شقته..

وقفت فوق السطح أتطلع إلى السماء إلى جوار أمي. روعتني حرارة الجو. شعرت بالقلق. فإذا كان هذا هو جو الإسكندرية، فكيف يتقبل جنودنا حرارة الجو والحرب في سيناء. الجو ملتهب منذ أسابيع. أطفأه الرئيس منذ أيام في مؤتمره الصحفي عندما أطلق بعض النكات الطريفة زرعت الطمأنينة في نفوس الناس. لكن القلق بدا على وجه الدقة منذ أيام وهو يخبرني أن شيخ الحارة سلَّمه ورقة وطلب منه أن يسلم نفسه لمنطقة التجنيد. قال "حين تندلع الحرب لا يقبلون مجندين جددًا.. لذا أعتقد ان الحرب لن تقوم".. بدا خائفًا وهو يتحدث عن مسعد وخليفة وعبد الباسط الذين لم يترلوا أجازة منذ أسابيع. خسارة. لم أعد أراه كثيرًا منذ أن قامت أسرته في كوم الشقافة . لم يعد يأتي كثيرًا إلى حارة الفهد. يجلس، احيانًا في مقهى "العربجية" لكنه لا يلبث أن يغادرها ويذهب. حدثني أنه يمر بحالة حب وأنه يسوي الأمور على نار هادئة. لم يعد فتحي عبد الحليم يأتي

إلى حارة الفهد. أصر أبوه أن أقيم في منزله بمحرم بك عدة أيام كي أذاكر مع ابنه. ابتعدت لأول مرة أسبوعًا كاملًا عن حارة الفهد.

حدَّثني فتحي عن فريدة التي يقبلها على السلم كلما سنحت له الفرصة لذلك. قال إنه رأى أخاه محمد يحتضنها فوق نفس السلم. جلسنا يومًا فوق السطح نسترجع دروسنا. تناثرنا في أماكن عديدة. بعد قليل صعدت فريدة مرتدية قميصًا فضفاضًا أكد للناظرين إليها – وأولهم أنا – أنها تتمتع بمواهب خارقة تؤكد كل ما قاله فتحي عن شغفها الشديد للمس والقبلات.

صعدت أختها "منى" الأقل منها موهبة، والتي أكد لي فتحي أنه مس جزءًا من جسدها غير اللدن. وتبعهما أخوهما إسلام. لم نتبادل أى تحية. وقف كل منا يراجع المذكرات بين أصابعه. فريدة في كلية الصيدلة. منى في الهندسة مثل محمد عبد الحليم. أما إسلام فلا يزال في الإعدادية. جلس أبناء عمي في مكان قصي بالسطح بينما وجدت نفسي أتمشى إلى جوار الجدار. جلست إلى جوار أحمد. ثم قمت ثانية. وتمشيت إلى جوار الجدار. لم أستطع استيعاب كيف يرتد الصوت داخل فضاء محدود في معادلته المذكورة. عدت إلى محمد عبد الحليم أستفسر منه عن هذه النقطة الصعبة. فسرها ببساطة. ثم عدت أتحرك فوق السطح. ناداني إسلام وطلب مني بصفاقة أن أجلس إلى جواره. لم أفهم ما يقصده. جلست أحاول استجمع ما أقرأ بلا جدوى. أخبرني فتحي أن إسلام يشعر بالغيرة على شقيقتيه وأنه تصور أن شيئًا ما في ذهني جعلني ألف حولهما فوق السطح.

في نهاية الأسبوع الذي استضافني فيه عمي خرجنا جميعًا في ملابس مهندمة متجهين إلى حارة الفهد لحضور الذكرى السنوية الأولى لوفاة أحمد عبد العظيم. التقينا نحن الخمسة لأول مرة معًا بعد عام بأكمله. فتحي عبد الحليم وأخوه، والدقة ونبيل، وأنا..

جلس رجل يؤبن الفقيد بروح فاترة. شعرت من كلماته أنه يحفظ كلامًا يردده في المناسبات عن الحياة ووجوب الموت، وامتحان السماء للآباء الذين فقدوا أبنائهم. انابتني الرغبة أن أقوم وألقي خطبة أكثر حماسًا. قال نبيل أنني لو فعلت ذلك فسوف أتلعثم. الخطابة موهبة لا علاقة لها بمشاعر الناس.

في نهاية السهرة ذهب عمي مع ولديه، تعجَّل نبيل العودة إلى منزله لأن المسافة طويلة بين كرموز والحضرة. بينما بقيت مع خالي نشهد إطفاء الأنوار عن المنزل عقب انصراف المعزين.

قالت أمي:

- علينا أن نرتب بعض أمورنا قبل أن يحل الظلام.

وعقب صلاة المغرب امتلأت حارة الفهد بالشباب الذين وضعوا شارات الدفاع المدني فوق أكتافهم وراح بعضهم يصيح "النور.. النور" انكمشت الحارة داخل الظلام. من بين النوافذ رحنا نستمع إلى نشرات الأخبار المتواصلة والبيانات العسكرية التي تصدرها القيادة العامة للقوات

المسلحة والتي تؤكد أن المعركة تسير على ما يرام. وأن الرئيس يشرف بنفسه على كل شيء يساعده المشير.

لم أستطع البقاء كثيرًا في المترل. فلا يمكن أن أحتمل هذه الظلمة. فكرت أن أذهب الى عادل وجيه. لكن هذا ضرب من المحال. فالمواصلات معطلة. والمدينة، من أعلى السطح، أشبه بشبح أسود تعلوه نقاط ضوئية زرقاء. في الحارات والشارع يتكلم الناس همسًا خوفًا أن تصعد أصواهم إلى عنان السماء فتلتقطها إحدى الطائرات المعادية العابرة فتعرف أن تحت هذا المكان مدينة سكنية فيلقوا علينا بالقنابل ويقتلوننا. صاح أحد شباب الدفاع المدني مناديًا زوجة خالي عبد العظيم ان تخفض من صوت الراديو قدر الإمكان. لم تعترض المرأة، رغم أنني وددت أن أتدخل وأخبره أن الراديو شيء مهم لنعلم منه كيف تسير الأمور.

عند ناصية الحارة، تنبهت أنني لم أقف هناك منذ فترة طويلة. ربما أكثر من عام قبل رحيل أحمد عبد العظيم بأسبوع تقريبًا. يوم أن توعدني ألا أنزل إلى الحارة. لاحظت أن الصبية الصغار تكتلوا في مجموعات يتحدثون عن الحرب وعن إسرائيل. بدت أصواهم غريبة على أذني. سمعت وسط أحد تجمعاهم صوتًا مألوفًا. إنه لؤلؤ. تعمدت أن أقترب من هذا التجمع وسط الظلام دون أن يلحظني أحد. يقف لؤلؤ يتحدث عن بطولاته الخارقة في حرب السويس. راح يقول:

- لم أكن أيامها أبو الأولاد مثلما أنا الآن. ولم أكن أبيع قصاصات القماش كما ترون هذه الأيام. بل كنت شابًا من أفضل شباب

كرموز. لا. بل من أشهر شباب إسكندرية كلها. كانوا يعرفونني من أبي قير إلى المكس. ويعملون لى ألف حساب لو ذهبت يومًا للتجول في أحد الأحياء. ورغم أن الدور لم يلحقني في الجيش، إلا أنه فور اندلاع الحرب قامت الشرطة بعقد اجتماع معنا. رأت الحكومة أن رجالًا مثلي أنا وإبراهيم وتحتح وأبناء عمومتنا سعد وفهد وحسن يمكنهم تخويف جيوش الأعادي كلها لوقوفنا أمامهم وقد فتح كل منا صدره الذي مزقه السكاكين والمطاوي. وأخبرنا مأمور القسم أن علينا أن نقوم بواجبنا الوطني. وأن ننضم لجيش الدفاع الشعبي. فهذا سوف يشجع بقية شباب الحي، بل شباب المدينة كلها أن ينضموا إلينا. قال أن كل واحد منا سوف يرأس فصيلة من الفصائل بعد تدريب بسيط. وبالفعل. تم تدريبنا في معسكر كوم الشقافة. كنا أشبه بقطع النار الملتهبة. لا تنظروا إلينا في هذه الأيام؛ فالزواج وهموم الحياة تقصم ظهور الرجال. ومثلمت كنا نتشاجر هنا في شارع التميمي فيما بيننا كانت الفصائل تتنافس، وكنت دائمًا الغالب. وأخذنا النياشين، ورحلنا إلى بورسعيد ذات ليلة لنشارك هناك في عمليات الدفاع الشعبي. ارجعوا إلى سجلات البطولة وسترون. رحمها الله أيامًا كنا شبابًا. وأي شباب. ليس مثل شباب هذه الأيام أصحاب الأقلام والدفاتر. أجل العلم نور، لكن الشباب حلو، يجعل المرء يحس بفتوته. تصوروا كم ضابط قتلنا!! وكم جندى ذبحنا!!

رد أحد الواقفين حوله: عشرين؟

رد لؤلؤ وهو يضرب كفًا بأخرى:

- عشرين.. لماذا.. هل كنا نقزقز لبًا. اسألوا أهل الحارة العواجيز.. اسألوا وسوف تعرفون تاريخنا الحقيقي أتصدقون بالله..؟

تمتمت بعض الأصوات "لا إله إلا الله.." أقسم عشرات المرات قبل أن يكمل:

- قتلنا منهم أعدادًا جعلت رئيس الوزراء الإنجليزى إيدن يستنجد برئيس أمريكا، أن يعجل قدر الإمكان بإخراج البقية الباقية من جنوده سالمين.. وقال له بالحرف الواحد "لن يطيب للإنجليز قط أن يعيشوا ببلد فيه لؤلؤ وإبراهيم الحنش". أجل قال له ذلك. وقد سمع الجميع أسماءنا في إذاعات لندن وصوت أمريكا. ألا تصدقون؟ حتى الرئيس جمال عبد الناصر خصص ربع ساعة للحديث عنا في خطابه الذي ألقاه عقب انسحاب قوات العدوان الثلاثي".

محمود قاسم

الفهرس